مفصّلاً هي التثبيت، فقال تعالى في معرض الرد على شُبه الكفار: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[1] [الفرقان: ٣٢ ـ ٣٣].

* القرآن ودوره العظيم في تثبيت الإيمان في النفس:

✍ القرآن يذكّر دائمًا بعظمة اللَّه التي لا تُحدّ، وآيات قدرته في الآفاق والأنفس، حتى يخشع القلب ويستسلم للَّه.

✍ ويذكّر دائمًا أن اللَّه مع الإنسان يراقبه ويحصي عليه أعماله، ثم يحاسبه عليها يوم القيامة، حتى تصبح تقوى اللَّه جزءًا لا يتجزأ من مشاعر القلب، وركيزة ثابتة في الضمير.

✍ وكذلك يوجه القرآن القلب البشري إلى ذكر اللَّه دائمًا في حالة السرّاء والضراء.

✍ يورد القرآن القصص التي تثبّت الإيمان، قصص الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين الذين صبروا على الأذى حتى جاءهم نصر اللَّه، وقصص الكفار الذين كَذّبوا وعاندوا حتى دمّر اللَّه عليهم بكفرهم.

✍ وأخيرًا يرسم القرآن صورة محببة للمؤمنين وصفاتهم، وما ينتظرهم من الجزاء في الآخرة، وصورًا كريهة منفّرة للكافرين وصفاتهم وسوء منقلبهم ومآلهم يظل القرآن يكرّر هذه التوجيهات حتى ترسخ في النفس، وحتى يصبح اللَّه حاضرًا في القلب لا يغفل الإنسان عن ذكره،

(١) «وسائل الثبات على دين اللَّه» للشيخ محمد صالح المنجد ص(٨).

فتستقيم مشاعره، ويستقيم سلوكه، ويصبح ربانيًّا ويرزقه اللَّه الطمأنينة والسعادة.

* القرآن العظيم شفاء من الحيرة يردّ على شبهات ودعاوى المبطلين:

مرة بإيقاظ وجدانهم لآيات اللَّه في الكون والحياة، ومرّة بمناقشة عقولهم بالبراهين والأدلة التي تبيّن الحق.

* قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

في القرآن شفاء، وفي القرآن رحمة، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، فأشرقت وتفتّحت لتلقى ما في القرآن من رَوْح، وطمأنينة وأمان.

في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة، فهو يصل القلب باللَّه، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن، ويرضى، فيستروح الرضى من اللَّه والرضى عن الحياة، والقلق مرض، والحيرة نصب، والوسوسة داء، ومن ثَمّ هو رحمة للمؤمنين.

وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان.. وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب، وتدفع به إلى التحطيم والبلى والانهيار، ومن ثَمّ هو رحمة للمؤمنين.

وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلّة في الشعور والتفكير، فهو يعصم العقل من الشطط والزلل.

لقد تلقّاهُ جيل الصحابة الجيل القرآني الفريد.. تلقوه توجيهًا يطبّق

في واقع الحياة كلما جاءهم منه أمر أو نهي، وكلما تلقّوا منه أدبًا أو فريضة.

لم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية ولا تسلية وتلهية، وإنما تكيّفوا به في حياتهم اليومية، تكيّفوا به في مشاعرهم وضمائرهم، وفي سلوكهم ونشاطهم، وفي بيوتهم ومعاشهم فكان منهج حياتهم.

❑ قال ابن مسعود ـ رضي اللّه عنه ـ: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.

جاء القرآن ليربّي الأمة والفرد، والتربية تحتاج إلى زمن وإلى تأثر وإلى انفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع..

لقد حقق القرآن خوارق في تكييف تلك النفوس التي تأثرت به يومًا يومًا، وانطبعت به أثرًا أثرًا، أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض، وإحياء الموتى، لقد صنع في هذه النفوس وبهذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثارًا في أقدار الحياة.

* القرآن يهب الطمأنينة والثبات لمن تدبره وعمل به، فلا يضل ولا يشقى:

من اتبع القرآن وتدبره فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض، وما يضلّ الإنسان عن القرآن إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف لا يستقر ولا يتوازن في خطاه، والشقاء قرين التخبط ولو كان في المرتع الممرع، من أعرض عن القرآن فله المعيشة الضنك.. ضنك الانقطاع عن اللّه، ضنك الحيرة والقلق والشك ـ فما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب اللّه، وما

يحسّ الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى. إن هذه الطمأنينة تضاعف الحياة طولاً وعرضًا وعمقًا وسعة.

القلوب التي تتدبر القرآن وتعمل به قلوب شفيفة ملؤها الطمأنينة والأنس واليقين.

تطمئن بإحساسها بالصلة باللَّه، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه، تطمئن من قلق الوحدة، وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما شاء اللَّه، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء، وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة.

ذلك الاطمئنان بذكر اللَّه في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت باللَّه، يعرفونها، ولا يملكون أن ينقلوها بالكلمات إلى الآخرين الذين لم يعرفوها؛ لأنها لا تنقل بالكلمات، إنما تسري في القلب فيستروحها ويهش لها ويندى بها ويستريح إليها ويشعر بالطمأنينة والسلام، ويحسّ أنه في هذا الوجود ليس مفردًا بلا أنيس، فكل ما حوله صديق، إذ كل ما حوله من صُنع اللَّه الذي هو في حماه.

وليس أشقى على وجه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس باللَّه، ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون؛ لأنه انفصم عن العروة الوثقى التي تربطه بما حوله.. ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لِمَ جاء؟ ولِمَ يذهب؟ ولم يعاني ما يعاني في الحياة؟ ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة؛ لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود، ليس أشقى

في الحياة ممّن يشق طريقه فريدًا وحيدًا شاردًا في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين.

إن هناك لحظات لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنًا إلى اللَّه، مطمئنًا إلى حماه، مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد.. ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله، فلا يصمد لها إلا المطمئنون باللَّه..

✍ يعيش الإنسان مع القرآن ويتدبره فتتغير نظرته للموازين والمعايير والقيم، ويرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود.. إنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة وحده.. إنه الدنيا والآخرة، لا الدنيا وحدها، وما يناله الإنسان من شيء في هذه الأرض فهو زهيد بالنسبة لما ينتظره في عالم الآخرة فيطمئن ويسكن.

✍ يعيش مع القرآن ويتدبره فيرى أن الحق قوام هذا الوجود، وأن الخير والصلاح والإحسان أصيل كالحق، باق بقاءه في الأرض، فيطمئن، وتغمره السكينة وتفيض على قلبه، ويثبت على الحق والخير والصلاح.

٥ـ التزام شرع اللَّه والتمسك به والعمل الصالح:

* قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

❑ قال قتادة: «أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، وفي الآخرة في القبر».

* وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦] أي: على الحق»[1].

(١) «وسائل الثبات على دين اللَّه» ص(١١).

يثبت اللَّه الذي آمنوا في الحياة الدنيا بالعمل الصالح المتجدد الباقي في الحياة.. بالإيمان المستقرّ في الضمائر الذي يزيد ويثبت بالعمل الصالح.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

● وفي الحديث القدسي: «**ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه...**».

الاستقامة على الأمر والنهي.. والاستقامة روح تحيا به الأحوال، وزكاة تربو عليها الأعمال، فلا زكاء للعمل، ولا صحة للحال بدونها.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

* وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

❑ قال وهيب بن الورد المكيّ: «لا يجد طعم العبادة من همّ بمعصية».

✍ هذا الصحابي الجليل أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب لم يتنطَّف بخطيئة منذ أسلم إلى أن مات.

✍ والربيع بن خثيم تأتي إليه ابنته، فقالت: يا أبتاه، أذهبُ ألعب؟ قال: اذهبي فقولي خيراً. فلا ينطق بكلمة اللعب.

✍ وعبد اللَّه بن عون بن أرطبان يقول عنه خارجة بن مصعب: صحبت ابن عون أربعًا وعشرين سنة، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة.

❑ وقال طبيب القلوب وهيب بن الورد: لأن أدع الغيبة أحبّ إليّ من أن يكون لي الدنيا ـ منذ خُلقت إلى أن تفنى ـ فأجعلها في سبيل اللَّه، ولأن أغض بصري، أحبّ إليّ من أن تكون لي الدنيا ـ منذ خُلقت إلى أن تفنى ـ فأجعلها في سبيل اللَّه.

❑ وبشر بن الحارث الحافي قال عنه تلميذه إبراهيم الحربي: «ما عُرِف له غيبة لمسلم».

❑ ويحيى بن سعيد القطّان قال عنه بندار: «اختلفت إلى يحيى بن سعيد أكثر من عشرين سنة ما أظنّه عصى اللَّه قط»[1].

❑ وابن دقيق العيد يقول: «ما تكلّمت كلمة، ولا فعلت فعلاً، إلاّ وأعددت له جوابًا بين يدي اللَّه عز وجل»[2].

❑ قال الضياء المقدسي: «سمعت خالي الموفق يقول: من عمري أعرفه ـ يعني العماد المقدسي ـ ما عرفت أنه عصى اللَّه معصية»[3].

❑ وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «واللَّه إني إلى الآن أجدّد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعدُ إسلامًا جيّدًا».

٦ـ تدبّر قصص النبيين والصالحين والتأسي بهم والعمل:

* قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

حين يمرّ العبد ويستعرض قصص الأنبياء في القرآن، ويرى موكب

(١) «السير» (٩/ ١٧٨).
(٢) «طبقات الشافعية» (٩/ ٢١٢).
(٣) «السير» (٢٢/ ٥٠).

الإيمان الكريم الطيب الطاهر المبارك الراسخ الثابت الذي يستعلي على التلاشي والانقراض برغم ضراوة المعركة بينه وبين ركب الباطل وجند الشيطان، يرى المرء ثبات هذا الموكب الطاهر ويقينهم وثقتهم باللَّه وسط أحلك الظروف؛ فيثبت حين يرى ثبات هذا الموكب الطاهر وهو يهدي للبشرية نماذج إيمانية رفيعة لتكون قدوتها، وقممًا إيمانية رائدة لتحاول السير إليها، ينشر نوره وظلاله وطيبه على الوجود فيحلو ويزكو.. يحثون المؤمنين على السير، ويحدون لهم ليأنسوا.. ويَسَعونهم بصدورهم وقلوبهم ليتموا الطريق.. ويبقى الموكب الطاهر يسير، وتبقى الطريق سالكة.

❑ يرى الإنسان قول اللَّه عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٣٥].

✍ يرى صبر خليل الرحمن الذي صابر ورابط، وفيه قال اللَّه عز وجل: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

❑ قال ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ: ما قام أحد بدين اللَّه كله إلا إبراهيم عليه السلام: قدّم جسده للنيران، وطعامه للضيفان، وولده للقربان.. بأبي هو وأمي مَن يصبر صبره ويطيق؟!

يأمره اللَّه بجعل ولده وزوجه في مكان قفر، فيطيع، ويأمره بذبح ولده وهو الشيخ الطاعن في السن فيطيع ويهمّ بذبح ابنه، ولما أُجّجت النيران لإلقائه فيها صبر وقال: «حسبي اللَّه ونعيم الوكيل».

✍ وقبله الصبر الكريم النبيل لنبي اللَّه نوح عليه السلام في الدعوة إلى اللَّه عز وجل ألف سنة إلا خمسين عامًا.. يُوقف أنفاسه على

الدعوة إلى اللَّه.. في أطول وأكرم صبر عرفه تاريخ البشرية.

✍ وصبر إسماعيل عليه السلام في الحادث الفريد العظيم.. وروعة إيمانه وعظمة تسليمه.. وراء كل ما يتعارف عليه بنو الإنسان يبقى منارة وتثبيتًا للسائرين على الدرب.

✍ يرى المرء صبر رسولنا الكريم ﷺ، وتعرضه للإيذاء الشديد كسرت رباعيته وشجّ رأسه، وشد الحجر على بطنه من شدة الجوع، وصبره النبيل على إيذاء أهل الطائف له.. حتى أدموا قدميه الشريفتين وسالت منهما الدماء.

✍ ينظر المرء فيرى أبهى صور التوكل لنبينا ﷺ والصحابة بعد أحد قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾ [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٤].

أعظم درس في الثبات وسط الجراح:

كان يوم «أُحُد» يوم السبت النصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذّن مؤذن رسول اللَّه ﷺ في الناس يطلب العدوّ، وأذّن مؤذّنه أن لا يخرجنّ معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس. دعاهم الرسول ﷺ إلى الخروج معه كرّة أخرى غداة المعركة المزيرة، وهم مثخنون بالجراح، وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة، وهم لم ينسوا بعد هول الدَّعْكة ومرارة الهزيمة وشدّة الكرب، وقد فقدوا من أعزّائهم من فقدوا، فقلّ

عددهم، فوق ما هم مثخنون بالجراح! لقد دعاهم الرسول ﷺ، ودعاهم وحدهم، وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة، تحمل إيحاءات شتى، وتومئ إلى حقائق كبرى؛ لعلّ رسول اللَّه ﷺ شاء أن يُشعر المسلمين وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم، بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وُجِدت في هذه الأرض.. حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها، ليس لهم من أربٍ في الدنيا غيرها، وليس لهم من غاية في حياتهم سواها، عقيدة يعيشون لها وحدها، فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا يبذلونها لها، ولا يقدمونها فداها.

هذه صورة رفيعة وموقف كريم لنفوس كبيرة لا تعرف إلا اللَّه وكيلاً، وترضى به وحده وتكتفي، وتزداد إيمانًا به في ساعة الشدة.. هذا هو الدرس الجميل في الثبات تتعلمه الأجيال المؤمنة.

يقف العبد طويلاً أمام يقين موسى عليه السلام وثقته بربه في أحلك الظروف ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢] كلاّ لن نكون هالكين، كلا لن نكون مفتونين، كلا لن نكون ضائعين، بهذا الجزم والتأكيد واليقين.

وينبثق الشعاع المنير في ليل الكرب، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون.

لا تدبِّرْ لك أمرًا ... فأولو التدبير هلكى
سلّم الأمر تجدنا ... نحن أولى بك منكا

✍ وترى قصص الربانيين على مدار التاريخ تثبت قلوب الراغبين في جوار الرحمن في دار كرامته.. موقف السحرة من فرعون.. موقف آسية التي تترك أبهة الملك والقصور وتتحمّل ما لا يطيقه إلا الأفذاذ من الرجال... وألوف وألوف من مواقف الصحابة وكل منها صفحة نيرة في دنيا الخلود.. أم عمار وخباب بن الأرت، وخبيب، وعمار، وبلال، وعامر بن فهيرة، وعمير بن الحمام، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وسلمان الفارسي الباحث عن الحقيقة وسابق الفرس.. وراء كل قصة معنى جميل يثبت القلوب الطاهرة في سيرها إلى اللّه عز وجل والدار الآخرة.

٧ـ الزهـــد:

الذين يقفون عند الحياة الدنيا، بما فيها من نقص وهبوط، ويرضونها ويستغرقون فيها، تهبط بهم ثم تهبط؛ لأنهم لا يرفعون رؤوسهم إلى قمة، ولا يتطلعون بأبصارهم إلى أفق، إنما يخفضون رؤوسهم وأبصارهم دائمًا إلى هذه الأرض وما عليها.. هؤلاء الذين ليس لهم همّ إلا لهو الدنيا ولعبها وتفاخرها وتكاثرها، لم يشبّوا عن الطوق.. هم أطفال البشرية الكبار عالمهم الأرض الضيقة الصغيرة.

الذين تعظم في أعينهم الدنيا ويلهثون وراءها بحثًا عن الرغائب والشهوات وحب الرياسة والجاه، وليس لهم همٌّ إلا الدنيا، وتتشعب قلوبهم في أودية الدنيا يتأرجحون ولا يثبتون.. متذبذبون أبدًا.. إذا بدا لهم عاجل من الدنيا طاروا إليه زرافات ووحدانا..

✍ والزهاد هم الذين تستقر أقدامهم على الأرض وتنزع أرواحهم إلى السماء، وترفرف أرواحهم إلى الآفاق اللائقة بكمال الإنسان..

صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى، يؤثرون الآخرة وهي خير وأبقى، يعلمون خسّة الدنيا وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها ويقيم اللَّه في قلوبهم شاهداً يعاينون به حقيقة الدنيا والآخرة.

● يعلمون قول رسولهم ﷺ: «**طوبى لمن هُدي للإسلام، وكان عيشه كفافًا، وقنع به**»(١).

● وقول نبيهم ﷺ: «**صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل**»(٢).

❑ قال ذو النون المصري: «تجوّع، وتخلّ، وتفرّد، ترى العجب»(٣).

وقال: «ما رجع من رجع إلاّ من الطريق، ولو وصلوا إلى اللَّه ما رجعوا، فازهد يا أخي تر العجب»(٤).

والزهد في الدنيا يجمع الهمّ ويجعله في طلب الآخرة، ولا يشتت القلب وإنما يجمع عليه أمره، ولا يوهن القلب بحب الجاه والرئاسة والسعي وراء الشهوات والحزن على فقدها وضياعها، فيطلب القلب الجنة في غدوه ورواحه طلب من لا بد له منها.

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: «إن رأس ما هو مصلحك ومصلح به على يديك: «الزهد في الدنيا، وإنما الزهد باليقين، واليقين

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، وابن حبان، والحاكم عن فضالة بن عبيد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٩٣١).

(٢) حسن: رواه أحمد في «الزهد»، والطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمرو، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٨٤٥).

(٣) «الزهد الكبير» للبيهقي ص(١٠١).

(٤) «الزهد الكبير» ص(٨٨).

بالتفكر، والتفكر بالاعتبار، فإذا أنت فكّرت في الدنيا لم تجدها أهلاً أن تتبع بها نفسك، ووجدت نفسك أهلاً أن تُكرمها بهوان الدنيا، فإن الدنيا دار بلاء ومنزل قُلْعَة»[١].

عزيز علينا أن تذيب الدنيا أكباد قوم وَعت صدورهم القرآن. القلب السليم المخبت أعظم من أن تشغله زخارف الدنيا فيتطلع إليها ويؤثرها على غيرها، فيميل مع الدنيا حيث مالت ولا يستقر به قرار إلا مع شهواته ورغائبه.

❑ قال الإمام أحمد: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل.

٨. قصر الأمل:

❑ وقصر الأمل دافع لحسن العمل. قال الربيع بن أبي راشد: لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يفسد.

❑ قال الربيع: لو غفل قلبي عن ذكر الموت ساعة واحدة لفسد قلبي.

❑ وقال القعقاع بن حكيم: قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة! فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء»[٢].

❑ وقال سفيان الثوري: رأيت شيخًا في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، فلو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء[٣].

---

(١) أي: انقطاع وارتحال.

(٢، ٣) «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ٦٦٣).

❑ قال داود الطائي في جنازة تدفن:

«من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آت قريب».

❑ وقال الحسن: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل.

❑ وقال بعض الحكماء: الأمل سلطان الشيطان على قلوب الغافلين.

❑ وقال أعرابي: مضى أمسُك، وعسى غدًا لغيرك.

❑ وقال الفضيل بن عياض: إنما أمس مثل، واليوم عمل، وغدًا أمل.

❑ وقال يحيى بن معاذ: أدم جهازك، وهيئ زادك، وتهيأ للعرض على ربك جلّت عظمته.

وقال: المغبوط من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى ربه قبل أن يلقاه.

❑ ولما عوتب عطاء السلمي في الرفق بنفسه قال: أتأمرونني بالتقصير والموت في عنقي، والقبر بيتي، وجهنم أمامي، ولا أدري ما يصنع بي ربي عز وجل؟!

❑ قال حاتم الأصم: سمعت شقيقًا يقول: استعد إذا جاءك الموت أن لا تسأل الرجعة وقل لنفسك كل صباح: آكل الموت، وألبس الكفن، وأسكن القبر، مثّل لبصر قلبك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك، فانظر كيف تكون.

❑ قال ابن المبارك: «استعد للموت ولما بعد الموت».

* **أخي:** أنذرتك سوف؛ فإنها جند من جنود إبليس.

٩- اليقين والثقة بالطريق:

اليقين روح أعمال القلوب التي هي روح أعمال الجوارح.

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل**»(١).

❑ قال الشعبي: اليقين: الإيمان كله.

أصحاب الدعوة إلى عز وجل لهم أسوة حسنة في رسل اللَّه عز وجل، وإنه لينبغي لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض.. وإذا طال الطريق على العصبة المؤمنة، فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق الذي سار عليه ركب النبيين الأطهار من لدن آدم.. فلا يستوحش الصادقون من طريق النور وإن قلّ عليه السالكون.. فإن أمير القوم يرعى القافلة.

إذا نحن أدلجنا وأنت إمامنا ... كفى بالمطايا طيب ذكراك حاديا

على الطريق معك النبيون والصديقون والشهداء والصالحون.. الحَقْ بناديهم وسر في واديهم يصل إليك صوت حاديهم.. ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ**﴾ أنت منهم.. ومثلما اصطفى اللَّه الأنبياء فلرجال الدعوة نصيب من هذا الاصطفاء بما ورثوه من علوم الأنبياء.

* انظر إلى مقالة أول رسول أُرسل، نوح عليه السلام: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً**

(١) حسن: رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله واليقين» عن ابن عمرو، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٧٤٦).

﴿ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١].

لقد كان مع نوح عليه السلام الإيمان واليقين الذي تتضاءل أمامه الكثرة.. لقد كان معه اللَّه الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان.

* وانظر إلى نبي اللَّه هود تجد الثقة واليقين والطمأنينة وعزة الإيمان واستعلاءه يقول لقومه: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٦].

يا لروعة اليقين الذي يغمر قلب نبي اللَّه هود، وهو فرد يواجه قومًا غلاظًا حمقى! يسفّه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم، ويهيج ضراوتهم بالتحدي، ولا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم، ولا يدعهم يتريّثون فيثأ غضبهم..؛ لأنه يرى وعد اللَّه بالنصر حقيقة ملموسة في قلبه، لا يشك فيها لحظة، يراه وكأنه حاضر واقع تتملاه العين والقلب.

* وانظر إلى خليل الرحمن إبراهيم وعلو يقينه: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٢].

كيف يخاف من عنده هذا اليقين؟ كيف يخاف من وجد اللَّه؟ وماذا يخاف؟ ومَن ذا يخاف؟!

* وانظر إلى اليقين الذي يملأ على إبراهيم عليه السلام قلبه ومشاعره وجوارحه وهو يقول لقومه: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٣].

* وقال لقومه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

● ورسول اللَّه ﷺ يأمر صحابته أن يقولوا لأبي سفيان يوم أحد: «الله مولانا ولا مولى لكم».

* ويُسطر في القرآن الكريم اليقين العالي لرسولنا ﷺ: ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٥، ١٩٦].

صاحب الدعوة وليه اللَّه.. يرتكن إلى حماه.. يعتز بأنه يمضي على صراطه المستقيم.. وبثقته في مولاه، وبيقينه بطريقه يثبت مهما أسفر الباطل من تعدّ، وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة.

إن نفس المؤمن حين تشف وترقّ باليقين، وحين تستعلق فيها حقيقة الإيمان، تستعلي على قوى الأرض، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة.

ماذا يملك كل من على وجه الأرض إذا فاض اليقين الذي لا

يتزعزع على القلوب، اليقين في الطريق، اليقين الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها، ويعلم الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره.

✍ ماذا يملك كل من على وجه الأرض إذا رغبت القلوب في طريق اللَّه، وإذا اشتاقت إلى جواره؟

✍ انظر إلى الأنصار ويقينهم يوم العقبة حين قالوا عن رسول اللَّه ﷺ: «إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف».

✍ وفي أحد لما أسقط في أيدي المسلمين يوم صاح الشيطان بأحد «ألا إن محمداً قد مات» صاح بهم ثابت بن الدحداحة: «يا معشر الأنصار، إليّ إليّ، أنا ثابت بن الدحداحة، إن كان محمد ﷺ قد قُتِل، فإن اللَّه حي لا يموت، فقاتلوا عن دينكم؛ فإن اللَّه مظهركم وناصركم»[1].

* يا إخوتاه.. يا حملة مشاعل النور:

إذا عرفتم اللَّه صغر عندكم مَنْ سواه وما سواه، بل ذاب في أعينكم وفنى في قلوبكم كل ما عداه، ولم يعد يستأهل الطلب والنصب إلا قربه ورضاه، وإذا استشعرتم رابطتكم بربكم وعونه لكم، وأيقنتم أنه معكم.. رأيتم أنفسكم أقوى من كل قوى الشيطان والطغيان!! وهكذا يولد المسلم ولادة جديدة، من عقيدته لا من رحم أمه، وينبعث بمعرفته باللَّه وحرارة إيمانه به.

لقد أحسّ جند اللَّه المؤمنون المخلصون الذين فرغوا من أنفسهم، ووهبوا حياتهم ـ كل حياتهم ـ لربهم فلم يتحرَّكوا ولم يقفوا، ولم يُعطوا

(١) «الاستيعاب» (١/ ١٩٥).

ولم يمنعوا، ولم يحبوا ولم يبغضوا، ولم يحاربوا ولم يُسالموا، إلا به وفيه ومن أجله عز وجل، لقد أحسوا أنهم قدر من قدر اللَّه الغلاّب، لا تصده ولا ترده قوة في الأرض إلا أن يشاء اللَّه»[1].

قد اختارنا اللَّه في دعوتهْ ... وإنا سنمضي على سنته
فمنا الذين قضوا نحْبَهم ... ومنّا الحفيظ على ذِمّته

ولله در القائل:

يقين تنوء به الراسيات ... ويكبر عن قبضة المجرم
ويا إخوتي.. يا مناط العلا ... ويا صيحة الحق ملء الفم
ويا جرح آمالنا الغاليات ... توهّج كالشرر المضْرَمِ
ويا صحوة الفكر.. أرواحنا ... بغير البطولات لم تَحْلُمِ
يجلجل فينا نداء السماء ... ويجأر كالقدر المبرم
يحيي الرجال ذوي العزمات ... ويُهدي الضياء لعَيْنِ العَمِي
يُحيل المشاعر ناراً ونوراً ... يشقّ سجوف الدجى المظلم
ويشرح للدهر معنى الثبات ... على الحق في نهجه القيِّمِ

ولله ما أحلى قول القائل:

الموقنون الصادقون مشاعل ... خَلَلَ الظلام تُسَلْسِلُ الأضواءَ
سيُنَشِّئون على المحجة فتيةً ... ورجال صدقٍ في الورى أمناءَ
هي دعوة للَّه أقبل فجرها ... بالنور يخفق مشرقًا وضاءَ
ضربت بأعماق النفوس جذورُها ... وسَمَتْ مناراً للهدى ولواءَ
تمشي على هام النجوم عزيزةً ... تُذكي النفوس توثبًا ومضاءَ

(١) «أزمة روحية» لعصام العطار.

* **أخي**: يا من شعارك: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

يا أهل اللَّه.. يا من تجمّعتم تحت لوائه، وتحرّكتم على صراطه، واهتديتم بهديه، وحقّقتم منهجه.. أنتم قدر من أقدار اللَّه.. مقامكم عالٍ رفيع.. صراطكم مستقيم طاهر.. انقطعتم عن كل شيء فوصلكم اللَّه به، تقبّلكم في كنفه، وصلى عليكم هو وملائكته، وأفسح لكم في جنابه، وأشعركم برضاه، فرضيتم.. رضيت نفوسكم بهذا القرب وأنست به واطمأنت إليه، كتب في قلوبكم الإيمان فلا زوال له ولا اندثار، ولا انطماس فيه ولا غموض أيّدكم بروح منه فأشرقت قلوبكم بهذا الروح، مَنْ يُفلح إذن إذا لم تفلحوا أنتم أيها المختارون؟!.

١٠ـ ذكر اللَّه تبارك وتعالى:

الذكر منشور الولاية، الذي من أُعطيه اتصل، ومن مُنعه عزل، وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا.

✍ هو منزل القوم الذي منه يتزودون، وفيه يتجرون، وإليه دائمًا يترددون، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قُطّاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علاّم الغيوب.

إذا مرضنا تداوينا بذكركُمُ ونترك الذكر أحيانًا فننتكسُ

✍ به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكُرُبات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنّتهم التي فيها يتقلّبون، ورءوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون.

✍ الذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة، وكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها، فكذلك القلوب بور وخراب، وهو عمارتها وأساسها.

✍ وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، يحفظ اللَّه به على المؤمن كل شيء، ويكون عوضًا له عن كل شيء.

✍ به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

✍ وهو باب اللَّه الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته.

✍ وبالذكر يَصْرَع العبد الشيطان، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف: «إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسّه الإنسي»[1].

✍ والذكر يجمع المتفرِّق، ويفرّق المجتمع، ويقرّب البعيد، ويبعد القريب، فيجمع ما تفرّق على العبد من قلبه وإرادته، وهمومه وعزومه،

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢٢).

والعذاب كل العذاب في تفرقها وتشتتها عليه، وانفراطها له، والحياة والنعيم في اجتماع قلبه وهمه، وعزمه وإرادته.

ويفرّق ما اجتمع عليه من الهموم والغموم والأحزان والحسرات على فوت حظوظه ومطالبه.

ويفرّق أيضًا ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره.

✍ ويفرّق ما اجتمع على حربه من جند الشيطان، فإن إبليس لا يزال يبعث له سرية بعد سرية، وكلما كان أقوى طلبًا للّه سبحانه وتعالى، وأمثل تعلقًا به وإرادة له، كانت السرية أكثف وأكثر وأعظم شوكة، بحسب ما عند العبد من مواد الخير والإرادة ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر.

✍ ويقرّب إليه الآخرة، فلا يزال يلهج بالذكر حتى كأنه قد دخلها وحضرها.

✍ والذكر ينبّه القلب من نومه، ويوقظه من سِنَته، والقلب إذا كان نائمًا فاتته الأرباح والمتاجر، وكان الغالب عليه الخسران، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته، شد المئزر، وأحيا بقية عمره، واستدرك ما فاته، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر، فإن الغفلة نوم ثقيل.

✍ والذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التي شمّر إليها العابدون.

✍ والذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد، ويعدل عتق الرقاب والحمل على الخيل في سبيل اللّه، ويعدل الضرب بالسيف في سبيل اللّه عز وجل، وهو خير الأعمال على الإطلاق، كما قال رسول اللّه ﷺ: **«ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الوَرِق والذهب، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا**

أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول اللَّه. قال: «ذكر اللَّه»[1].

* وذكر اللَّه من أعظم أسباب الثبات على الطريق قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. وفي موكب الإيمان التاريخي نجد الذكر أكبر العون في قلوب العصبة المؤمنة.

* يواجه فرعون بالتهديد المروّع البشع الطاغي السحرة بعد إيمانهم فقالوا له: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

* وواجهت العصبة المؤمنة القليلة جالوت وجنوده وتحصنوا بالذكر ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

* والمؤمنون على مدار التاريخ حصنهم الذكر ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥ ـ ١٤٦].

* والصحابة الأبرار بعد ما أصابهم القرح في أحد فلما دُعوا إلى الخروج ثاني يوم كان حاديهم قول اللَّه عز وجل: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

(١) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم عن أبي الدرداء، وصححه الحاكم والنووي، والألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٦٢٩).

* إن ذكر اللَّـه اتصال بالقـاهر القوي الذي لا يـغلب، وثقة بـاللَّه الذي ينصر حزبـه وأولياءه؛ ولذا لا ينسى في أحلك المـواقف فهو أعظم معين للثبات.

١١ـ الدعـاء:

سبحان من جعل خـلقه يفزعون في حاجاتهم إليـه، ويعوّلون عند الحوادث والكوارث علـيه، سبحان من جعل الدعاء عـبادة وقربى، وأمر عباده بالتوجه إليه لينالوا عنده منزلة وزلفى.

* قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٦].

الدعاء يسكب في قـلب المؤمن نداوة حلوة، وودًّا مؤنسًـا، ورضا مطمـئنًا، وثقة ويـقينًا.. يعـيش المؤمن فـي جناب رضيّ وقربـى نديّة، وملاذ أمـين وقرار مكين، وهـو يدعو من لـيس له مثـيل ولا نظـير.. ينطرح على عتـبة العبودية يلوذ بأقصر طريق إلـى مولاه.. يلوذ بالدعاء يسأل مولاه بعزه وذله وبغناه وفقره أن يمنّ عليه بنعمة التثبيت ولا يمنحها عبده إلا هو، ولا يتفضل بها عليه سواه.

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**أفضل العبادة الدعاء**»[١].

● وقـال ﷺ: «**من سرّه أن يستجيب اللَّـه له عند الشدائـد والكُرَب فليكثر الدعاء في الرخاء**»[٢].

---

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» عن ابن عـباس، وابن عدي عن أبي هريرة، وابن سعد عـن النعمـان بن بشير، وصـححه الحاكـم، وأقرّه الذهبي، وصـححه السـيوطي، والألباني في «صحيح الجامع» رقم (١١٢٢).

(٢) حسن: رواه الترمذي، والحاكم عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٩٠).

والسالك إلى اللَّه على درب الدعاء، وطريق الذل والانكسار، والافتقار إلى اللَّه، وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، على طريق سماها الربانيون طريق الطير وهو غاية شمّر إليها السالكون، وأمّها القاصدون، وهو طريق أقرب من كل طريق إلى الودود، لا مزاحم فيه، فلانكسار القلب تأثير عجيب في الثبات، وما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور، وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه، وما أنفع هذا الذل له وأجداه عليه، وذرة من هذا ونَفَس منه أحب إلى اللَّه من طاعات أمثال الجبال من المدلّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم.

وأحب القلوب إلى اللَّه سبحانه قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، لا يرفع رأسه حياءً من اللَّه.

❑ قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء. فهذا سجود القلب، فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه.

وإذا سجد القلب للَّه ـ هذه السجدة العظمى ـ سجدت معه جميع الجوارح، وعنا القلب للحي القيوم، وخشعت الجوارح والأصوات كلها، وذل العبد واستكان، ووضع خدّه على عتبة العبودية، ناظرًا بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم، فلا يُرى إلا متملقًا لربه خاضعًا له، ذليلاً مستعطفًا له يقول: كيف أُغْضِبُ مَن حياتي في رضاه؟ وكيف أَعْدِلُ عمّن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحماه؟!

وما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة

بولدها؟ إذا فرّ عبده إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقى نفسه طريحًا ببابه، يمرّغ خده في ثرى أعتابه، باكيًا بين يديه، يقول: يا رب، يا رب! ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مأوى له سواك، ولا مغيث له سواك، مسكينك، وفقيرك، وسائلك، ومؤملك ومرجيك، لا ملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك، أنت معاذه وملاذه.

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

إن دعاءً حُفّ بآدابه يجزم به صاحبه ويوقن بالإجابة ويلح فيه على مولاه وتعظم فيه المسألة، ويدعو فيه العبد ربه باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ـ لحريّ أن يُستجاب كرمًا من اللَّه وفضلاً ومنّة.

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا تمنّى أحدكم فليُكثر، فإنما يسأل ربه**»[1].

فيعظم العبد المسألة ويسأل ربه باسمه الأعظم الثبات على دينه.

● «**اللَّهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم**»[2]. اللَّهم صلي على محمد وآله.

* ﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ [آل عمران: ٨].

* ﴿**رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن**

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط» عن عائشة، وصححه المناوي (١/ ٣٢٠) «فيض القدير»، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٣٧).

(٢) جزء من حديث صحيح أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي، وأحمد، والحاكم، وابن حبان عن أنس. في الدعاء باسم اللَّه الأعظم.

لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠].

● «اللَّهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني وتتوب عليّ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون».

● «اللَّهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللَّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

● «اللَّهم يا ولي الإسلام وأهله، مَسِّكني بالإسلام حتى ألقاك عليه».

● «اللَّهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك...».

● «اللَّهم إني أسألك من فضلك ورحمتك، فإنه لا يملكها إلا أنت».

● «اللَّهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً، واجعل لي في نفسي نوراً، وأعظم لي نوراً»(١).

● «اللَّهم احفظني بالإسلام قائمًا، واحفظني بالإسلام قاعداً، واحفظني بالإسلام راقداً، ولا تشمت بي عدواً حاسداً، اللَّهم إني أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك»(٢).

● «اللَّهم اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلها، اللَّهم انعشني واجبرني، واهدني

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي عن ابن عباس.

(٢) حسن: رواه الحاكم عن ابن مسعود، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٢٦).

لصالح الأعمال والأخلاق؛ فإنه لا يهدي لصالحها ولا يصرف سيئها إلا أنت»[١].

● «اللَّهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللَّهم اغفر لي خطئي وعمدي، وهزلي وجدي، وكل ذلك عندي، اللَّهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت؟ أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير».

● ولقد كان رسول اللَّه ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»[٢].

□ وللَّه ما أحلى دعاء أيوب السختياني:

«اللَّهم ألحقنا بنبينا غير خزايا ولا نادمين، ولا خارجين ولا فاسقين، ولا مبدلين ولا مرتابين، واجعلنا من الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا»، «اللَّهم أسألك الإيمان وحقائقه ووثائقه».

* **أخي**: كيف لا يثبت على دين اللَّه من أمات بالذل عزته، وجعل إلى الرب حاجته، وذكر في الخلوات خطيئته، وأرسل على الوَجْنة عبرته، وشكا إلى اللَّه غربته، وسأله بالتوبة رحمته، جأَر الليل والنهار: بكّاء إلى اللَّه بالأسحار: «اللَّهم أسألك تذللاً، فأعطني تفضلاً. . اللَّهم يا واسع المغفرة، ويا باسط اليدين بالرحمة، افعل بي ما أنت أهله. . يا

---

(١) حسن: رواه ابن السني، والطبراني في «الأوسط»، و«الصغير»، والحاكم عن أبي أيوب، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٢٦٦).

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن أنس مرفوعًا، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٦٤).

منتهى السؤالات، يا موضع الحاجات، يا من لا تملّ حلاوة ذكره ألسن الخائفين، ولا تكلّ من الرغبات إليه مدامع الخاشعين يا واهب المواهب، ومجزل الرغائب، أعوذ بك من الحور بعد الكور، أعوذ بك من النزول بعد الوصول، ومن الكدر بعد الصَّفا، رَقِّ في ذرا الكرامة مهجتي، ونضّر بالكمال لديك بهجتي، وعزّفني عن الدون، سهِّرني فيما نامت عنه أعين الغافلين.

اللَّهم يا وارث الأرض ومن عليها، ويا باعث جميع من فيها، وزّث أملي فيك مُنى أملي، وبلِّغ همي فيك منتهى وسائلي.

اللَّهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.. واجعل العيون منا فوّارة بالعبرات، لك الحمد يا ذا المنّ والطول والآلاء والسعة، إليك توجهنا وبفنائك أنخنا، ولمعروفك تعرضنا، يا حبيب التائبين، ويا سرور العابدين، ويا أنيس الذاكرين، ويا حرز اللاّحبين، ويا ظهر المنقطعين، أنت أصلحت الصالحين فاجعلنا من الصالحين..

رباه عفوك إني ... للنور مُدَّتْ يدايا
أبكي وأُبكَى ويبكي ... دمعي ويبكي بكايا
وحفنة من دعاءٍ ... غرفتُه من دمايا
ولا لغيرك دوّى ... يا رب يومًا ندايا
فاسكب ضياءك إني ... ظمآن ضلّ صدايا

*** إلهي:**

إلهي أقلني عثرتي وامح زلتي ... فإني مقر خائف متضرّعُ
إلهي ترى حالي وفقري وفاقتي ... وأنت مناجاتي الخفيّة تسمعُ

إلهي حليفُ الحب بالليل ساهر ... يناجي ويبكي والغَفُول يهجَّعُ
إلهي لئن تعفو فعفوك منقذي ... وإني يا رب الورى لك أخضعُ

❑ وأخيراً:

وما لي غير باب اللَّه بابٌ ... ولا مولى سواه ولا حبيب
كريم منعم بر لطيف ... جميل الستر للداعي مجيب

واللَّه إن دعاءً يُرفع إلى المنان الودود الكريم.. تسح معه الدمع على الوجنات.. في الخلوات والأسحار من قلب حاضر خاشع يسأل ربه الثبات، ويعوذ به من العثار.. لحريّ أن تُفتّح له أبواب السماوات.

١٢ـ التفكر:

❑ قال الحسن البصري: أوصيكم بتقوى اللَّه وإدمان الفِكْر، فإن الفكر أبو كل بر وأمه، مفتح خِلال الخير كله، وبه يحضر تسديد اللَّه عز وجل كل موفق.

❑ وقال سفيان بن عيينة: التفكر مفتاح الرحمة، ألا ترى أنه يتفكر فيتوب؟!

❑ وقال أبو سليمان الداراني: «إنما يُعاينون إذا تفكّروا».

أي: يصلون إلى مرتبة الإحسان، كأنهم يؤمنون بعد مشاهدتهم للَّه ومعاينته.

❑ قال ابن القيم: الفكرة فكرتان: فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة.

فالتي تتعلق بالعلم والمعرفة: فكرة التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفي.

والتي تتعلق بالعلم والإرادة: هي الفكرة التي تميّز بين النافع والضار.

ثم يترتب عليها فكرة أخرى في الطريق إلى حصول ما ينفع فيسلكها، والطريق إلى ما يضرّ فيتركها.

«فهذه ستة أقسام لا سابع لها، هي مجال أفكار العقلاء»[1].

❑ قال الحسن: التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

❑ وقال وهب بن منبه: «ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل»[2].

❑ وقال خليفة العبدي: واللَّه ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربهم عز وجل، وحتى كأنما عبدوا اللَّه تبارك وتعالى عن رؤية.

فإذا تفكر المرء في طريقه وغايته ومآله وربه، والحياة وزوالها وسرعة انقضائها ووازن بين الثبات والنكوص، أو قارن بين الثبات والذبذبة، وما له وما عليه استقام على الدرب.

١٣ ـ مجاهدة النفس:

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

من حسّنَ ظاهره بالمجاهدة زين اللَّه باطنه بالمشاهدة.

جاهد بقلبك قبل جوارحك. جاهد لتكن عبد اللَّه وحده، فحقيقة

---

(١) «مدارج السالكين» (١/١٤٦).

(٢) «العظمة» لأبي الشيخ الأصبهاني ص(٢٢١ ـ ٢٢٢) ـ دار العاصمة ـ الرياض.

الحرية في كمال العبودية.

قل لـقيـود الأرض وزخرفـها: لا، لا يـا قيـود الأرض، فالملك يدعونـي إلى جواره في فـردوسه. فجاهـد نفسك يـا أخي تثبـت على الطريق وتصل إلى الشرف كل الشرف.

- قال بشـر بن الحارث: «لا تجد حلاوة العـبادة حتى تجعل بـينك وبين الشهوات حائطًا من حديد».
- وقال أبو سليمان الداراني: أفضل الأعمال خلاف هوى النفس.
- وقال عـمر بن عبـد العزيز: أفـضل الأعمال مـا أُكرهت علـيه الأنفس.
- وقال السـري السقطـي: لن يكمـل رجل حتى يُـؤثر دينه عـلى شهوته، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.
- وقال السري أيضًا: أقوى الفتوة: غلبتك نفسك.
- وقال أحمد بن خضرويه: أَمِتْ نفسك تُحييها.
- وقال حاتم الأصم: الموت الأحمر مخالفة النفس.

* نعم يا أخي:

من صبر عـلى مخالفة نفسـه أوصله اللَّه إلى مقـام أُنسه. إن أهل الحزم يعوّدون أنفسهم مخالفة هواها وإن كان مباحًا، ليقع التمرين للنفس على ترك الهوى مطلقًا.

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضـاع وإن تفطمـه ينفطـم

يجاهد العـبد نفسه اللوّامة حتـى تستقيم على شرع الـلَّه وطريقه، وتصير نفسًا مطمئنة تلزم أمر اللَّه عز وجل..

❑ مرّ الجنيد برجل يقول:

منازل كنت تهواها وتألفها ... أيام أنت على الهوى منصورُ

فبكى الجنيد بكاءً شديداً وقال: «ما أطيب منازل الألفة والأنس، وأوحش مقامات المخالفة، لا أزال أحنّ إلى أول بدء إرادتي وجدّة سعيي»

فلو شريت بعمري ساعة سلفتْ ... من عيشتي معكم ما كان بالغالي

❑ قال أحد الصالحين: كنت اثنتي عشرة سنة حدّاد نفسي، وخمسين سنة مرآة قلبي، ولقد أحببت اللَّه حتى أبغضت نفسي.

ومجاهدة النفس قد تشق، ولكنها طريق أكيد للثبات.

● عن فضالة بن عبيد ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«المجاهد من جاهد نفسه في اللَّه»**[1].

● وعن ابن عمرو ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجرُ مَنْ هجر ما نهى اللَّه عنه»**[2].

✍ إن فتنة النفس والشهوة، وجاذبية الأرض والدَّعة والاطمئنان، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه، مع المعوّقات والمثبطات في أعماق النفس هي الفتنة الكبرى.

والنفس تصهرها المجاهدة، فتنفي عنها الخبث، وتستجيش قواها المذخورة فتستيقظ وتستقيم على الطريق.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي، وابن حبان، وأحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٦٧٩).

(٢) رواه البخاري، وأبو داود، والنسائي، وأحمد، والدارمي، والطيالسي.

١٤ـ العلم والبصيرة:

العلم يورث صاحبه الثبات.. والسالك على حسب علمه تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه.

وبالعلم يُميّز العبد بين الحق والباطل، والصدق والكذب، يميّز بين ما يحبه اللَّه وما يبغضه من الأعيان والأقوال والأعمال، ويميّز بين الخبيث والطيب، ويعرف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين.

والبصيرة نور في القلب يُبصر به الوعد والوعيد والجنة والنار، فيُفتح في قلبه عين يرى بها ذلك، ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة، ودوامها، والدنيا وسرعة انقضائها.

والبصيرة نور يقذفه اللَّه في القلب، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل، كأنه يشاهده رأي عين، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل.

وبالعلم تزول الشبهات التي تثبّط الإنسان وتعرقل سيره إلى اللَّه عز وجل فيثبت.

١٥ـ علو همة السالك:

«لا يزال العبد مقرونًا بالتواني، ما دام مقيمًا على وعد الأماني» قالها يحيى بن معاذ، وللَّه دره.. وما اختار أحد الأماني تقوده إلا كان أثقل ما يكون خطوًا، ووجد ثمَّ السراب الخادع، وعَدِم الماء وقت العطش، وأما المضيء النفس، ومَن لا أمنية له من الدعاة، فإنك تجده سبّاقًا إلى الخير إلى كل خيرٍ أبدًا، وتجده على ريٍّ دومًا، فإنه إن كان

ذا قوة استسقى لنفسه أو استسقى لغيره، فيجيبه اللَّه بهطل من السماء، وإن كان مستضعفًا وجد وَرِيًّا لموسى عليه السلام يسقي له ويزاحم الرعاع»[1].

والسير مع الهمم العالية لا زال هو الطريق المعبد الوحيد في خارطتنا للثبات، أما الجبن والانزواء والتأوه فصحاري مهلكة وذبذبة وتأرجح، لا ترضى بها نفس عالي الهمة.

فمن لا تنهض به همته لا يزال في حضيض طبعه محبوسًا، وقلبه عن كماله الذي خُلِق له مصدودًا مذبذبًا منكوسًا، قد أسمت نفسه مع الأنعام، راعيًا مع الهمل، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل، لا كمن رُفِع له علم فشمّر إليه، وبورك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى اللَّه ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سيره.

✍ إن حياة النفس في السموّ، ونجاتها في العلو، بل نجاة الأمم. والهمة مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همته وصدق فيها، صلح له ما وراء ذلك من الأعمال، ويمثل لها ابن القيم بمثل لطيف فيقول:

«مثل القلب مثل الطائر، كلما علا بَعدُ عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات»[2].

فكما أن الاستعلاء بالهمة يُبقي القلب نظيفًا بريئًا من المعنى الخسيس، مشغولاً بالعظام، فإنه يقي القلب من الآفات والأمراض

(١) «الرقائق» لمحمد أحمد الراشد ص(٤٥ ـ ٤٦).

(٢) «الجواب الكافي» لابن القيم ص(٧٠).

وسهام الشيطان، والمنازل العالية والأماني الغالية تحتاج إلى همم موّارة وعزائم جبّارة.

فكن رجلاً رحله في الثرى وهامة همّته في الثريا

✍ ألا فليهنأ أرباب الهمم، وصفوة الأمم ـ بطيران أرواحهم إلى مراقي الصعود، ومطالع السعود، ومراتب الخلود، فليهنئوا بالثبات على الطريق بل ووصول القمم.. وليخسأ العاكفون على غفلاتهم في الذبذبة والحضيض، فلن يشفع لهم عند ملكوت الفضل نومهم العريض، وقل لهؤلاء الراقدين: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾.

لا بد للهمم المتوثبة أن تنال مطلوبها.. ولا بَدَلَ للعزائم المتوثبة أن يثبت أصحابها وتدرك مرغوبها، سنّة لا تتبدل، وقضية لا تتحول.

سوف تأتيك المعالي إنْ أتيْتَا لا تقل سوف عسى أينَ وليْتا

✍ فالعذاب بالهمة عذب، والهمة توقد القلب، واستسهال الصعب، وركوب الخطب.

ومن عنده همة عارمة وعزيمة صارمة، اقتحم بها سور المعالي، وصار ثباته على دينه قصة الليالي.

١٦ـ معرفة قيمة النفس:

من عرف قدر نفسه ونفاستها وأنه يثامن بها ربها لا يرضى لها ثمنًا دون الجنة.. لا يرضى لها الحضيض، وصفات تتفق مع ثقلة الأرض التي تلصقها بالتراب فلا تنطلق ولا ترتفع، وإنما تهبط بهم ثقلة المطامع والرغائب والضعف والخور إلى صفات مهينة من الذبذبة، والأرجحة، والاهتزاز وعدم الاستقرار.. صفات رزية تثير الاحتقار والاشمئزاز،

والضعف الذاتي.

✍ من عرف قيمة نفسه علم أنه في الخليقة شيء آخر لا يشبهه أحد، فيرفع قيمته ويغلي ثمنه بعمله الصالح وبثباته، لتكون قيمته غالية عالية.

✍ يا هذا، عندك بضائع نفيسة؛ دموع ودماء، وأنفاس وحركات، وكلمات ونظرات؛ فلا تبذلها فيما لا قدر له. أيصلح أن تبكي لفقد ما لا يبقى؟ أو تتنفّس أسفًا على ما يفنى؟ أو تبذل مهجة لصورة عن قليل تمحى؟ ويحك!! دمعة منك تُطفئ غضب ربك، وقطرة من دم في الشهادة تمحو زللك، ونَفَس أسف ينسف لك ما سلف، وخطوات في مرضاتهم تغسل الخطيئات، وتسبيحة تغرس لك أشجار الخلد في الجنات، ونظرة بعبرة تثمر الزهد في الفاني.

✍ يا من هو من أرباب الخبرة، هل عرفت قيمة نفسك؟! إنما خُلقت الأكوان كلها لك، يا مَنْ غُذِّي بلبان البِّر وقُلِّب بأيدي الألطاف، يا زرعًا تهمي عليه سحائب الإنعام؛ كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة، وصورة وأنت المعنى، وصَدَف وأنت الدرّ، ومخيض وأنت الزبد، لو عرفت قدر نفسك عند مولاك ما أهنتها بالأرجحة.

١٧ ـ الغيرة:

على قدر الغيرة يكون ثبات من ثبت. غيرة العبد من نفسه على نفسه، كغيرته من نفسه على قلبه، ومن تفرقته على جمعيَّته، ومن إعراضه على إقباله، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة.

وغيرته لربه ولمحارمه أن تنتهك، وغيرته لدينه أن يصبح مزقًا بأيدي أصحاب الأهواء، حين تصح غيرته ويصدق فيها يبذل النفس والنفيس ويستقيم على الدرب.

وحين يتنكس الإنسان ولا يغار لربه ودينه ونفسه يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط، حين تصبح البهائم أرفع منه وأقوم، حين يرتكس مع هواه إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه، يرتكس في المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين، ويتمخض للسفول، وإذا ماتت فيه الغيرة على نفسه وعلى المحارم، يصبح أسفل من البهائم.

١٨ ـ التوكل على الله عزوجل:

● عن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«لو أنكم توكلتم على اللَّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا[1]»**[2].

✍ وأهم الرزق رزق القلوب فهو أولى من رزق الأبدان، ومنه الثبات على الدين، وإن كان التوكل مركب من مجموع أمور. منها معرفة العبد بالرب وصفاته من قدرته وكفايته، وقيوميَّته، وانتهاء الأمور

---

(١) خماصًا: أي: ضامرة البطون من الجوع، وبطانًا: أي: ممتلئة البطون.

(٢) صحيح: أخرجه ابن المبارك في «الزهد»، والطيالسي في «مسنده»، والترمذي، وابن ماجه والنسائي في «الكبرى»، وأبو نعيم في «الحلية»، والبغوي في «شرح السنة»، وأخرجه أحمد في «المسند»، والفسوي في «المعرفة»، وابن حبان، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الشعب»، وأخرجه أبو نعيم في «أخبار أصفهان»، وصححه المناوي في «التيسير»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٢٥٤)، و«الصحيحة» رقم (٣١٠).

إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته، ولا يصح توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، واعتماد القلب على اللَّه واستناده إليه وسكونه إليه، وحسن الظن باللَّه عز وجل، واستسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه.

✍ وانظر إلى أعلى التوكل وهو توكل الأنبياء في نصرة دين اللَّه ودفع فساد المفسدين ـ وهو توكل ورثتهم أيضًا ـ كيف يجعل الإنسان جبلاً راسيًا شامخًا.

✍ وللَّه در الخليلين إبراهيم ومحمد ـ صلى اللَّه عليهما وسلم ـ.

● عن ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

✍ عندما يتوكل القلب على اللَّه، ويتصل باللَّه، وينفض يده من كل الأشباح الزائفة والأسباب الباطلة للنصرة والحماية والالتجاء، ويتوكل على اللَّه وحده يأتي نصر اللَّه وفرجه.

✍ يتوكل المؤمن على اللَّه وحده، وهو مطمئن إلى موقفه وطريقه، مالئ يديه من وليه وناصره، يعلم أن اللَّه الذي يهدي السبيل لا بد أن ينصر ويعين ويثبت، يحس القلب أن عناية اللَّه سبحانه تقود خطاه وتهديه السبيل.

وهذه حقيقة تستشعرها القلوب، حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية اللَّه وبين بديهية التوكل عليه..

* قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ

﴿عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

✍ تستشعر القلوب التي تسير على درب اللَّه وترجو رحمة اللَّه وعنايته وهي تفتح كوى النور، فتبصر الآفاق المشرقة، وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة، وتحسّ الأنس والقربى، فلا تتخلى عن دربها والتزامها، وماذا يخاف القلب الموصول باللَّه على هذا النحو؟!

* ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ لا نتزحزح، ولا نضعف، ولا نتراجع، ولا نهن، ولا نتزعزع، ولا نشك، ولا نفرّط، ولا نحيد.

* ولعل في الموقف الباهر لنبي اللَّه هود ﷺ الفهم كل الفهم لمعنى التوكل في أبهى صوره ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥].

✍ حين يستيقن العبد أن ربه آخذ بناصية كل دابة، وأن الناس ـ كل الناس ـ إن هم إلا دوابّ من الدواب، وأن اللَّه عز وجل يُعطي ويسلب حين يشاء كيف يشاء بعموم قدرة، وكمال ملك، وتمام حكمة وعدل وإحسان، يملك العبد حينئذ أن يقف بإيمانه في استعلاء أمام كل قوى الأرض ويرسخ إيمانه ويشتد ويثبت.

✍ انظر إلى أم إسماعيل ـ رحمها اللَّه ـ تقول لخليل الرحمن إبراهيم حين وضعها عند البيت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ آللَّه أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا.

✍ وقالتها لجبريل حين قال لها: إلى مَن وكلكما؟ قالت: إلى اللَّه. قال: وكلكما إلى كاف. لا تخشي الضيعة، إن اللَّه لا يضيع أهله.

وورثت أم إسماعيل منارة التوكل العظيمة هذه إلى الأمة، «هذا ما أورثتكموه أم إسماعيل»، وهبّت رياح نسمات التوكل على القلوب فملأتها إيمانًا ويقينًا.

١٩ ـ الحياء أكبر عون على الثبات:

والحياء من أعظم وسائل الثبات.. حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه، فيجذبه إلى تحمل المجاهدة، ويحمله على استقباح الجناية، وهذا الاستقباح قدر زائد على استقباح ملاحظة الوعيد، وهو فوقه.

وفوق هذا الحياء حياء يتولد من النظر في علم القُرْب، تحقق القلب بالمعية الخاصة مع اللَّه، فيدعوه إلى ركوب المحبة، ويربطه بروح الأنس، ويُكرّه إليه ملابسة الخلق.

إذا انجذب الروح والقلب من الكائنات، وعكف على رب البريات فلا يخطر بباله في تلك الحالة سوى اللَّه وحده.. فيا لها من جمعيّة على اللَّه ما أحلاها!

✍ الحياء من اللَّه عز وجل يجعل العبد لا يضيّع فريضة، ولا يرتكب خطيئة، لعلمه أن اللَّه يراه، وأنه لا بدّ أن يقرّره يوم القيامة على ما عمله، فيخجل ويستحيي من ربه.

✍ فيا سوأتاه ويا خجلاه من ربه حين يراه لا يثبت على طريقه، ولا يرعى عهده معه، ويجعله أهون الناظرين إليه.

✍ من استحيا من اللَّه حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى،

والبطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، من فعل ذلك فقد استحيا من اللَّه حق الحياء.

✍ من أراد اللَّه تعالى عمل على إجلال اللَّه وتعظيمه، ورفض جميع ما سواه، استحياءً منه، بحيث لا يرى إلا إياه.

يا مَن يُشيرُ إليهمُ المتكلمُ ... وإليهم يتوجه المتظلِّمُ
وشغلتمُ كلمي بكم وجوارحي ... وجوانحي أبداً تحنّ إليكمُ
وإذا نظرتُ فلستُ أنظرُ غيركمْ ... وإذا سمعتُ فمنكمُ أو عنكمُ
وإذا نطقت ففي صفات جمالكمْ ... وإذا سألتُ الكائنات فعنكمُ
وإذا رَويتُ فمِن طَهُور شرابكمْ ... وبذكركم في خلوتي أترَنَّمُ

* * *

✍ والاستحياء من الملائكة.. بإكرامهم وإجلالهم أن يروا العبد متأرجحًا لا يثبت في طريق اللَّه عز وجل، ولا يوفي بحق مولاه وعهده مع ربه، يقول للملائكة على الدوام: أهلاً بملائكة ربي.. لا أعدمكم هذه اللحظة خيراً.

✍ ويستحيي من نفسه أن يراها على الحقير من الأمور.. لا ترعى للَّه عهداً ولا تتحلى بجميل ما أمر اللَّه به.

✍ ويستحيي من الناس ومن صالحي الأمة أن يروه بعيداً عنهم، راغبًا عن طريقهم..

✍ قالت السيدة عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ: الحياء رأس مكارم الأخلاق.

والحياء العلم الأكبر، وإذا ذهب الحياء من القلب لم يبق فيه خير.

✍ يحفظ العبد حتى خواطره حياءً من اللَّه عز وجل، ويستحيي من اللَّه في خلوته، ولا ينظر إلى صغر الخطيئة، ولكن ينظر إلى كبرياء من واجهه بها. ولا يعمل سرًّا يُفتضح به يوم القيامة.

٢٠ـ المراقبة لله عز وجل:

وهي ثمرة علمه بأن اللَّه سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، مطّلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نَفَس وكل طرفة عين، والغافل عن هذا بمعزل عن الطريق المستقيم.

والسالك يحفظ مع اللَّه الأنفاس، ويخلص سره وعلانيته للَّه عز وجل.

ومراقبة الحق على دوام الأوقات أفضل الطاعات.. حفظ السرائر، فإنه مطلع على الضمائر.

❑ قال الجنيد: قال لي إبراهيم الآجري ـ رحمه اللَّه ـ: يا غلام، لئن تردَّ من همّك إلى اللَّه ذرة، خير لك مما طلعت عليه الشمس.

يتعبد العبد لربه بأسمائه الرقيب، الحفيظ، السميع، العليم، الخبير، المحصي، البصير، الشهيد.. فمن عقل هذه الأسماء وتعبّد بها حصلت له المراقبة.

فالمراقبة أن يصير الغالب على العبد ذكْره بقلبه أن اللَّه مطلع عليه على الدوام؛ فيخاف سطوات عقوبته في كل نَفَس، ويهابه في كل وقت.

كأن رقيبًا منك يرعى خواطري وآخر يرعى مهجتي ولساني

مراقبة قبل العمل، ومراقبة في العمل.

مراقبته في الطاعة: بالإخلاص، والكمال، ومراعاة الأدب، وحراستها عن الآفات.

❑ قال محمد بن عـلي الترمذي: اجعل مراقبتـك لمن لا تغيب عن نظره.

❑ قال عامر بن عبد قيس: ما نظرتُ إلى شيءٍ إلا رأيت اللَّه تعالى أقرب إليه مني.

❑ قال الجنيد: اعـلم أن اللَّه عز وجل يقرب من قلـوب عباده على حسب ما يرى من قُرب قلوب عباده منه، فانظر ماذا يقرب من قلبك.

٢١ـ التربية:

التربية الإيمـانية العلمية الـواعية المتدرجة عامل أسـاسي من عوامل الثبات.

التـربيـة الإيمانيـة: التي تحيـي القلب والضمير بـالخوف والرجاء والمحبة المـنافية للـجفاف الناتج مـن البعد عـن نصوص القرآن والـسنة، والعكوف على أقاويل الرجال.

التـربيـة العلميـة: القائمة علـى الدليل الصحيح، المنافية لـلتقليد والإمعية الذميمة.

التـربيـة الواعيـة: التي تعرف سَبيل المجرمين، وتدرس خطط أعداء الإسلام وتحيط بالواقع علمًا، وبالأحداث فهمًا وتقويمًا، المنافية للانغلاق والتقوقع على البيئات الصغيرة المحدودة.

التـربيـة المتـدرّجة: التي تسير بـالمسلم شيئا فشيئـاً، ترتقي به في مدارج كمـاله بتخـطيط موزون، والمنـافية للارتجـال والتسرع والـقفزات المحَطِّمة»[1].

---

(١) «وسائل الثبات على دين اللَّه» ص(١٩).

بهذه التربية العميقة من مشكاة النبوة ثبت بلال وخباب ومصعب وخبيب وآل ياسر. ثبتوا وضربوا أروع الأمثلة في تاريخ البشرية وسجّلوا صمودًا في دنيا الواقع أغرب من الخيال. في حين لم يصمد مسلمة الفتح وحديثو العهد بالإسلام يوم حنين. ولم يثبت إلا أصحاب السمرة حين سمعوا صوت مربيهم: أنا النبي لا كذب. أنا ابن عبد المطلب.

ولا بد في التربية أن يربى العبد على مزج العلم بالعمل وقرنهما معًا، وإحياء الربانية في هذه الأمة، فالعلم يهتف بالعمل فإن أجابه حلّ وإلا ارتحل. ولا يكون الإنسان مثل الإبرة يكسو الناس وهو عريان أو كالشمعة يضيء للناس ويحرق نفسه. والناس في حاجة إلى من يصدق قوله فعله بعيدًا عن التشدق والتفيهق والثرثرة من غير ما عمل.

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وهذا توجيه أخلاقي دقيق نظيف لضمير المسلم وشخصيته يليق بمن يقوم أمينًا على منهج اللَّه في الأرض. وأفضل الأمر استواء العلانية والسر والباطن والظاهر. حتى لا يصاب الإنسان بالانفصام بين واقعه ومثله وعلمه فيخسر نفسه قبل أي شيء.. يخسر طمأنينته وقراره.. وثقته بطريقه.

٢٢ـ تدبر الأسماء والصفات والتعبد لله بمقتضاها:

العلم بأسماء اللَّه وصفاته أشرف العلوم، والتعبد للَّه بها يورث العبد اليقين.. والثبات على دين اللَّه.. يقف الإنسان طويلاً أمام آيات اللَّه ويتدبرها: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾.. ﴿ وَهُوَ

الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾، وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، وقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾. يعلم أن الأمر كله للَّه، ولا يكون في الكون إلا ما يشاء رب العالمين.

يتدبر الإنسان أسماء اللَّه الحسنى: الفتّاح، الوهاب، الرزاق، والمعطي، والمحسن، والمعز المذل، والخافض الرافع، يرى العبد سعة رحمة ربه، وتمام كفايته وحسن ولايته له، وأسماؤه: «الرقيب، الحفيظ السميع، العليم، الخبير، البصير، الشهيد، المحصي، الوكيل، والقوي، والمتين، والأول، والآخر، والجميل.. وغيرها إذا تعبد العبد بمقتضاها كملت سعادته وأفلح، وجرت ينابيع المعرفة من قلبه على جوارحه.. فسلّم أموره كلها إلى البصير الكافي الودود، وأخبت لربه وتبتل.

٢٣ ـ ممارسة الدعوة إلى الله عز وجل:

الدعوة إلى اللَّه عز وجل أحسن كلمة تقال في الأرض، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء مع العمل الصالح.. وصاحبها هو حبيب اللَّه وهو ولي اللَّه.

أنت كنز الدُّرِّ والياقوت في ... لُجَّةِ الدنيا وإنْ لم يعرفُوكَ
مَحْفَل الأيام في شوق إلى ... صَوتِكَ العالي عساهم يسمعوك

والدعوة لرئة الأحياء هواء، ولكبد الدنيا ماء.

قال ابن القيم: «مقام الدعوة إلى اللَّه أشرف مقامات التعبّد».

والمبلّغون ما أمر الرسول ﷺ من خلفاء الرسول ﷺ في أمته، لهم من حفظ اللَّه وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه، وتبليغهم له.

وتبليغ السنن لا تقوم به إلا ورثة الأنبياء، وهو أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، وهو جهاد الخاصة، وممارستها تحتاج إلى طهارة القلب والخلق والعمل، فمزاولة الدعوة في وسط التيارات والأهواء والمداخل والدروب، وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كي يملك استنقاذ الملّوثين دون أن يتلّوث، وملابسة المدنسين من غير أن يتدنس.

والداعية إلى اللَّه كالطبيب يحارب المرض بخبرته وعلمه، وبمحاربته في الآخرين، فهو أبعد من غيره عن الوقوع فيه و«النفس إن لم تتحرك تأسن، وإن لم تنطلق تتعفن، ومن أعظم مجالات انطلاق النفس: الدعوة إلى اللَّه، فهي وظيفة الرسل، ومخلّصة النفس من العذاب، فيها تتفجّر الطاقات، وتنجز المهمات.

والدعوة إلى المنهج الصحيح، ببذل الوقت، وكدّ الفكر، وسعي الجسد، وانطلاق اللسان، بحيث تصبح الدعوة همّ المسلم وشغله الشاغل ـ تقطعُ الطريق على محاولات الشيطان بالإضلال والفتنة»[1].

(١) «وسائل الثبات» ص(٢٣ ـ ٢٤).

✍ الدعاة إلى اللَّه عز وجل يقدّمون الكثير، ويبذلون للدعوة الكثير، ويلقون الكثير من الجهد والتضحية والعناء، يستقيمون على الدرب، بقدر استقامتهم على الدعوة، وهذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحس بما تبذل فيها، فالبذل فيها من الضخامة، بحيث لا تتحمله النفس إلا حين تنساه، بل حين لا تستشعره من الأصل؛ لأنها مستغرقة في الشعور باللَّه، شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله وعطاياه ولذا يفترشون الغبراء، ويلتحفون السماء.

وَمُشَتَّت العزمات لا يأوي إلى ... سكن ولا أهل ولا جيران
ألف النَّوَى حتى كأن رحيله ... للبيْن رحْلَته إلى الأوطان

✍ «زد على ذلك ما يحدث في نفس الداعية من الشعور بالتحدي تجاه العوائق، والمعاندين، وأهل الباطل، وهو يسير في مشواره الدعويّ، فيرتقي إيمانه، وتقوى أركانه».

والدعوة إلى اللَّه عز وجل معركة شاقة.. معركة مزدوجة مع شهوات النفوس وأهواء القلوب، ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات، وتدفعهم شياطين الأهواء، وهي معركة طويلة عنيفة تصقل روح الداعية إنها ليست تطوعًا يتقدم به صاحب الدعوة، وليست لذة ذاتية في حمل الهدى والخير للناس، إنما هو الأمر العلوي الذي لا يمكن التفلّت عنه ولا التردد فيه، لا يصلح له من يصمت ويتخارس، ويظلّ الأخرس قلقًا أبدًا، محرومًا من الطمأنينة والسكينة الإيمانية، فإنها حكر خالص لأصحاب اللسان الناطق بالحق. من ذا يقاتل العدو غير الدعاة، ومَن يردّ كيد الصهيونية والماسونية، والشيوعية الإلحادية غيرهم؟ فالدعاة إلى اللَّه مجاهدون مهاجرون أبدًا.

الداعي إلى اللَّه يرفع للخير راية، ويكبّر تكبيراً يُنبِّه ويوقد ناراً تلفت، يبصرها أهل الخير، وينوي المرابطة للدعوة، فهذه أرض الإسلام لا تُترك لغيره. إن في أنفس الدعاة ومن حولهم نزوعًا إلى العلاء، وشغفًا بالارتقاء، وحنينًا إلى المكارم، وشوقًا إلى العظائم.

إن في أرض الإسلام جمرة يغطيها الرماد، وشرارة يقدحها الزِّناد، فإن وجدت نافخًا في جمرها، وقادحًا لشررها، استيقظت، وتحفّزت وعملت، وصعدت، وكلما زادت لذة العمل والرقي، زادت حبًّا له وهيامًا به وقلوب الدعاة تضيء لهم وللسالكين، وتتوقد شوقًا للعمل لدين اللَّه قلوب الأحرار لا أنوار الثريات.

تنصب خيمتك في صحراء جاهلية القرن العشرين، وتضرم نارك ليراها التائهون والمنقطعون فيقصدونها وينزلون خيمتك.. وتنادي بنات عزائمك لُبينى وسعدى.. وعزة.. ليزدن لهب النار.

يا لُبينى أوقدي طال المدى ... أوقدي علَّ على النار هُدَى
أوقدي يا لُبْنَ قد حار الدليل ... أوقدي النار لأبناء السبيل
ارفعي النار وأذكي جمرها ... علّ هذا الركب يعشو شطرها
شرّدي هذا الظلام الجاثما ... أرشدي هذا الفراش الهائما
حَبّذا النار بليل توقدُ ... حَبّذا المُؤْنِس هذا الموقِدُ
حبذا عندك هذا النُّزُلُ ... لو حوانا في سفارٍ منزلُ
مَا لِذا المنزل قد سار الفريقْ ... إنما النيران أعلامُ الطريقْ
زوّدينا بهُيام ووجيب ... زوِّدي يا لُبْنَ من هذا اللهيبْ[1]

(١) لعزّام من قصيدة «اللمعات» التي ألحقها بترجمته لديوان «رسالة المشرق» لإقبال.

✍ وفوق هذا كله الدعوة إلى اللَّه ونصرة رسوله بيعة مع اللَّه وعهد معه، ورحم اللَّه الزاهد جعفر الخالدي حين قال: «ما عقدتُ للَّه على نفسي عقداً فنكسته»، وللدعاة في عهودهم سمت الوفاء. فكيف بعهدهم مع اللَّه؟!

٢٤ـ مصاحبة ذوي الهمة العالية والالتفاف حول العناصر المثبتة:

✍ يصحب الإنسان في سيره إلى اللَّه عز وجل من يحمله في سيره إلى اللَّه عز وجل ويطير به طيرانًا لا من يحمله هو ويعوقه في سيره إلى اللَّه.

ولا تتخذ بالسير رفقة قاعداً ودعه فإن الشوق يكفيك حاملا

ومن أراد الثبات يحتاج إلى قمم تثبته عند النوازل والخطوب.

✍ انظر إلى الصحابة وهم أفذاذ الرجال والقمم السامقة كيف احتاجت إلى الصّديق ليعلمها الثبات عند موت رسول اللَّه ﷺ وفتنة الردّة، وانظر إلى الأمة كيف احتاجت إلى الإمام أحمد يتحمل عنها عبء هذه المحنة العظيمة.. حتى قال علي بن المديني: «إن اللَّه أعز الإسلام برجلين لا ثالث لهما: أبو بكر يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة».

✍ وابن تيمية تكالب عليه أهل البدع وسُجن فما رجع، خوّفوه السلطان، وأخرجوه من الأوطان، فما لانت له عريكة، وما ذابت له سبيكة، كان يرهب الملوك، وهو الذي يتواضع لكل مسكين وصعلوك، له ثبات كأن الموت عنده عطية، والهلاك مطية، والمنيّة هدية.. بطل هزّ

الدول، وأتبع القول العمل.

رأيته فرأيت الناس في رجل ... كالفجر في شرف والدُّرُّ في صدف

حروفُه كشعاعِ الشمس لوْ قطرت ... ألفاظهُ قلتَ هذا الزهر في ترفِ

✍ ما نقول في رجل جنته في صدره: قرآنه وذكره، أينما راح فهي معه، يقول: «ما يصنع أعدائي بي.. أنا جنتي وبستاني في صدري، أينما رحت فهي معي.. إن معي كتاب اللَّه وسنة رسوله.. إن قتلوني فقتلي شهادة، وإن نفوني عن بلدي فنفي سياحة، وإن حبسوني فأنا في خلوة مع ربي.

❑ يقول عنه ابن القيم: «كان أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة»[1].

❑ يقول يحيى بن معاذ الرازي: «وليّ اللَّه ريحان في الأرض، فإذا شمّه المريدون ووصلت رائحته إلى قلوبهم اشتاقوا إلى ربهم»[2].

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**أولياء اللَّه الذين إذا رُئوا ذُكِر اللَّه تعالى**»[3].

إن كان هذا في رؤية وجوههم فكيف بجوارهم وسماع كلامهم؟!

---

(١) «الوابل الصيب» ص(٧٦).

(٢) «تنبيه المغترين» للشعراني ص(١٧).

(٣) حسن: رواه الحكيم عن ابن عباس، والطبراني في «الكبير»، والمروزي، وأبو نعيم، والضياء، وابن المبارك عن سعيد بن جبير مرسلاً، وحسّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٥٥٤).

❑ قال عبد اللَّـه بن المبارك شيخ الإسلام: «إذا نظرت إلـى الفضيل جدّد لي الحزن، ومَقَتُّ نفسي، ثم بكى»[١].

❑ وقال الفضيل: «نظر المؤمن إلى المؤمن يجلو القلب».

فطوبى لمن اتخذ ذوي الهمم العالية أعوانًا، وخلط نفسه مع الأبرار وصحب أهل المعاني، وترك أصحاب الدعاوى.

ولدوام الصـحبة أثر: هذا الـطاووس يحب الـبساتين، فهـو يوافق الأشجار، إذا ألقت ورقها ألقى ريشه، فإذا اكتست اكتسى.

تأثير الصحبة لا يخفى، أما ترى دود البقول خضر؟

تشبه بالموقـنين تعدّ في الجملة.. لو سرت في حزب الـثابتين على الدرب الصادقين مع اللَّه لعرفوا لك حـق الصحبة.. إن وقعت ببعضهم حمـلك إلى أرضهـم، إن صدقت فـي طلبـهم فبادر، ولا تـستصـعب طريقهم فالمعين قادر، وسَلْ فمولاك مولاهم.

فلا تلتفت إلاّ إلى منَ دلّك على اللَّـه وعلى الطريق الموصلة إليه، واسلك جَادّة القوم لعلّ مشاعلهم تلوحُ لكم، تعلّق بغبارهم لعلّ الحادي ينوه بـكم، صوِّتوا بالـقوم عسى يقـف بعض الـساقة لكم، ابكـوا على تأخّركم وترددكم لعلّ عطف الرحمة تنعطف نحوكم.

ترفَّقْ رفيقي إن بدت نار أرضهم ... أم الوجـــد يذكي ناره ويثيرهـــا

* * *

* **أخـــي**: إن الأكابر من العبّـاد والعلماء يحتاجون إلى مَـن يُفتِّش لهم

---

(١) «السير» (٨/ ٤٣٨).

ويُخرج لهم الخبايا من الزوايا التي قد تذهب بنور العمل فما الظن بغيرهم؟!

قال أبو عبد اللَّه الأنطاكي: «اجتمع الفضيل والثوري فتذاكرا، فرَقّ سفيان وبكى، ثم قال: أرجو أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة. فقال له الفضيل: لكني يا أبا عبد اللَّه أخاف أن لا يكون أضرّ علينا منه، ألست تخلّصت إلى أحسن حديثك، وتخلصت إلى أحسن حديثي، فتزيّنتَ لي وتزيّنت لك فعبدتني وعبدتك فبكى سفيان حتى علا نحيبه، ثم قال: أحياك اللَّه كما أحييتني»[1].

فإن كان سفيان وهو مَن هو يحتاج إلى توجيه الفُضيل، فكيف بمن لا يساوي غبار نعل الثوري؟!

قال إبراهيم النخعي: «جالسوا التوّابين؛ فإنهم أرقّ الناس قلوبًا، ورحمة اللَّه إليهم أقرب»[2].

وكان الإمام أحمد إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد، أو قيام بحق أو اتباع للأمر، سأل عنه، وأحبّ أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله.

من دنا من الصالحين وخالطهم ناله الأجر العظيم.

خدم أبو بكر المروزي الإمام أحمد فلما مات أحمد. خرج المروزي إلى الغزو فشيّعه الناس إلى سامرا، فجعل يَرُدهم فلا يرجعون، قال: فحرزوا فإذا هم بسامرّا ـ سوى من رجع ـ نحو من خمسين ألف

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٦٤)، و«السير» (٨/ ٤٣٩).
(٢) «والموعد اللَّه» لخالد محمد خالد ص(٣١).

إنسان. فقيل: يا أبا بكر، احمد اللَّـه فهذا علم قد نُشِر لك. فبكى، ثم قال: ليس هذا العلم لي، وإنما هذا علم أحمد بن حنبل[١].

✍ وانظر إلى ابن العـطار خادم النووي وتلميذه. يقـول عن شيخه النووي: «كان رحمه اللَّـه تعالى رفيقًا بي، شفيقًا عـلي، لا يُمكِّن أحدًا من خدمته غيـري، على جهْـد مني في طلب ذلك منه، مع مراقبته لي ـ رضي اللَّه عنه ـ فـي حركاتي وسكناتي، ولطفه بـي في جميع ذلك، وتواضـعه معـي في جمـيع الحالات، وتأديـبه لي فـي كل شيء حـتى الخطرات، وأعجز عن حصر ذلك».

وانظر إلى قول النووي عن تلميـذه وخادمه ابن العطار يقول: «قد أخبرني من أثق بخيره وصلاحه وكـراماته وفلاحه» فهذا حال الخادم من جرّاء الصحبة.

فصاحب يا أخي أهل المعاني المتيقظين للدقائق والثواني.

✍ كتب الأحنف بن قيس: «إذا قدم علـيك أخ لك موافق، فليكن منك مكان سـمعك وبصرك، فانظر إلـى هذا وأشباهه فاجعلـهم كنوزك وذخائرك، وأصحابك في سفرك وحضرك».

✍ وما أحلى قول أمير المؤمنين عـمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ إذ يقول: «علـيك بإخوان الصدق، فعِـشْ في أكنافِهم؛ فإنـهم زين في الرخاء وعدّة في البلاء».

٢٥ ـ قراءة تراجم وسير سلف الأمة الصالحين:

ماذا يـفعل الـرجل منـا وقد تبـدّل الزمان وأهـله، إلا قراءة سـير

(١) «مناقب الإمام أحمد» ص(٦١١).

وتراجم الصادقين الراسخين في العلم والعمل؟

ومن عجب أني أحنّ إليهم ... وأسأل شوقًا عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهم في سوادها ... ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

✍ تزوّج عثمان بن أبي العاص امرأة من نساء عمر بن الخطاب فقال: «واللَّه ما نكحتها رغبة في مال ولا ولد، ولكني أحببت أن تخبرني عن ليل عمر»[1].

✍ وعن أبي ليلى: تزوّج رجل امرأة ابن رواحة، فقال لها: تدرين لم تزوّجتك؟ لتخبريني عن صنيع عبد اللَّه في بيته»[2].

إن أخبار العلماء العاملين والنبهاء الصالحين من خير الوسائل التي تغرس الفضائل في النفوس، وتدفعها إلى تحمّل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة.

و«الحكايات جند من جنود اللَّه يثبّت اللَّه بها قلوب أوليائه».

❑ وقال الجنيد: الحكايات جند من جنود اللَّه عز وجل، يُقوّي بها إيمان المريدين، إن التملي من اجتلاء مناقب الصالحين الربانيين لخير معين لإنارة القلوب وإخلاص النيّات، والصبر على اجتياز العقبات، والصدق مع اللَّه والثبات.

هؤلاء قوم سيط الحق بدمائهم، فسبر مواطن العظمة في حياتهم، ومطالعة سيرهم وسيلة هامة من وسائل الثبات، فإن الحي لا تُؤمن عليه الفتنة.

---

(١) «الزهد» لابن حنبل ص(١١٨ ـ ١١٩) ورجاله ثقات.

(٢) «الإصابة» لابن حجر (٦/ ١٧٨ ـ ١٧٩) وصحح سنده الحافظ ابن حجر، وذكره الذهبي في «السير» (١/ ٣٣).

ما في الديار أخو وجد يريحك إن بشثته بعض شأن الحب فاغترب

٢٦ ـ معرفة حقيقة الباطل وعدم الاغترار به:

* قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

إن المنهج القرآني لا يُعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب، إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضًا.

إن التمسك بالحق لا ينشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق، ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل وأنه يسلك سبيل المجرمين إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح لا بد من استبانة طريق المجرمين، حتى لا تختلط الشعارات والعناوين والأسماء والصفات، والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطرق.

● فلا تلميع ولا تلبيس ولا تخليط كما جاء في الحديث: «**يصدّق فيها الكاذب ويُكذّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة**».

إذا عَيّر الطائي بالبخلُ مادرٌ وعَيّر قسًّا بالفهاهة باقلُ
وقال الدجى للشمس أنت كسيفةٌ وقال السُّهى للبدر وجهكَ حائلُ
وطاولت الأرضُ السماء سفاهةً ونافست النجم الحصى والجنادلُ
فيا موتُ زُرْ إن الحياة ذميمةٌ ويا نفس جدّي إن دهرك هازلُ

* * *

فإذا اجتاز أصحاب الدعوات هذه العقبة، وتمت في نفوسهم هذه الاستبانة، انطلقت طاقاتهم كلها في سبيل اللَّه لا تصدها شبهة، ولا يعوّقها غبش، ولا يميّعها لبس، واحتملوا متاعب الطريق.

✍ وحقيقة أخرى أن الباطل ينتفخ وينتفج وينتفش، ويحاول أن يُموّه على العين، ويبدو عظيمًا كبيرًا ضخمًا راسخًا، ولكنه هش سريع العطب، كشعلة الهشيم ترتفع في الفضاء عاليًا، ثم تخبو سريعًا وتستحيل إلى رماد، بينما الجمرة الذكية تدفئ وتنفع وتبقى، وكالزبد يطفو على الماء، ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء.

حتمًا يتهاوى الباطل، وسينهار وإن بدا للنظرة الأولى أن له صولة ودولة.

٢٧ - واقع المسلمين المر وآلامهم يثبّت صاحب المروءة ويصنع الرجال:

واقع المسلمين المر البارد الجامد الهامد الشارد الخامد يجعل صاحب المروءة يصيح.

لو كنتُ مِن مازنٍ لَمْ تَسْتَبح إبلي ... بنو اللقيطةِ مِن ذُهلِ ابنِ شيبانا

قومٌ إذا الشَّرُّ أبدى ناجذَيْه لهم ... طاروا إليه زرافاتٍ وَوُحْدانا

لا يسألون أخاهم حين يَنْدُبُهُم ... في النائبات على ما قال بُرهانَا

❑ واقع المسلمين المرّ:

عدد الحصى والرمل في تعْدَادِهم ... فإذا حسبت وَجَدتَّهمُ أصفارا

❑ وا إسلاماه: صرخة مفجوعة، وصيحة مقطوعة.. حين يصيح

طفل من الأندلس، لما رأى أمه وهو في حضنها تختلس: «وا أماه»

يا رَبِّ أمٌّ وطفلٌ حيل بينهما ... كما تَفرّقُ أرواح وأبدانُ

❑ وا إسلاماه:

كنا أُسوداً ملوك الأرض ترهبنا ... والآن أصبح فأر الدار نخشاهُ

❑ وا قدساه:

مررتُ بالمسجد المحزون أسأله ... هل في المصلى أو المحراب مروانُ
تغيّر المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر أحرارٌ وعبدانُ
فلا الأذان أذان في منائره ... من حيث يُتلى ولا الآذان آذانُ

❑ يا أمة الإسلام يا أماه:

أتلقّاك وطرفي مُطْرَقٌ ... خجلاً من أمسك المنصرم
ويكاد الدمعُ يَهْمِي عابثًا ... ببقايا كبرياء الألَمِ
أُمّتي كَمْ غُصَّةٍ دامية ... خَنَقت نجوى عُلاك على فمِي
أي جُرحٍ في إبائي راعفٌ ... فاته الأسَى فلم يلتئِمِ
أَلإسرائيلَ تعلُو رايةٌ ... في حِمى المهد وظِلِّ الحَرَمِ؟
كيف أغْضيْت على الذُّلّ ولم ... تنفضِي عنك غُبار التُّهَمِ
أوَ ما كنتِ إذا البَغيّ اعتدى ... موجةً من لهبٍ أوْ مِن دَمِ
كيف أقدمتِ وأحجمتِ ولَمْ ... يشتَفِ الثأر ولم تنتقمي
اسْمَعي نوح الحَزَانَى واطْرِبي ... وانظري دمعَ اليتامى وابسمي
ودَعي القادةَ في أهوائها ... تتفانى في خسيسِ المَغْنَمِ
رُبَّ «وا معتصماهُ» انطلقتْ ... ملءَ أفواه الصبايا اليُتَّمِ
لامستْ أسماعَهمُ لكنها ... لَم تُلامِسْ نَخوةَ المعتصِمِ

أمتي كم صَنَمٍ مَجّدْتِهِ ... لمْ يكنُ يحملُ طُهْرَ[1] الصَّنَمِ
لا يُلام الذئبُ في عُدْوانه ... إن يَكُ الراعي عَدُوّ الغَنَمِ
فاحبسي الشكوى فلولاكِ لما ... كان في الحُكْمِ عَبيدُ الدِّرْهَمِ

❑ يا رباه:

رُحماكَ هل نحن أحفادُ الأُلَى ركِبُوا ... مَوْجَ البحارِ بدينِ الواحدِ الصمدِ؟
فَما دَهانا رَجَعْنا القَهْقَرى كسلاً ... أشُكُّ يا دهرُ في قومي وفي بلدي

❑ وا إسلاماه.. وا أُمتاه.. أين شبابُك؟:

لو أن للدهرِ عينًا منهمُ دَمَعَت ... أَوْ أن للصخر قلبًا نابضًا لبَكَى
أَزْرَوا بأمتهم من سوءِ سيرتهمْ ... لأجلهم كم سألنا الموتَ لو فتكَا

❑ يا أمتي يا أماه:

أمتي يا أعزّ شيءٍ بقلبي ... رحل العُمر والجناحُ مهيضُ
رحل العمرُ والمآسي خِضَمٌّ ... جازه غيرُنا ونحن نخوضُ
رحل العُمر والليالي اكتئاب ... مُعتِم لم يُشر إليه وميضُ
أمتي هذه المصائب زنْدٌ ... يُشعِل العَزْم حين يغفو النهوضُ[2]

❑ أيها النائمون الغافلون:

عار عليكم أيها المستسلمونْ
وطنٌ يُباعُ وأمة تنساقُ قطعانا
وأنتم نائمونْ

---

(١) أي: لو كان للصنم أي طهر.. ما حمله أولئك فهم أنجس من الأصنام.

(٢) ديوان «نقوش على واجهة القرن الخامس عشر» شعر لعبد الرحمن العشماوي ص(٨١) ـ مكتبة العبيكان.

❑ أيها الغافلون:

كيف ارتضيْتُم أن ينام الذئبُ في وسط القطيعِ وتأمنونْ

❑ أيها النائمون:

القدس تسألكم أليس لِعرْضِها حقٌّ عليكُمْ

أين فرّ الرافضونْ

وأين غاب البائعونْ

وأين راح الهاربون

الصامتون.. الغافلون الكاذبون؟

❑ وا إسلاماه: آهٍ وألف آهٍ من قوافل الضياع المشردة في كل مكان.

قـوافـلُ تمـضـي بـين أفـواجِ رُضَّـع ... وأحـزانِ ثَـكْـلـى أو تـبـاريـحِ أيِّـمِ

وبـين صـبـايـا يـا لَـذُلٌ دمـوعـهـا ... وأفـواج أطـفـالٍ وأفـواج يُـتَّـمِ

قوافِلُ تمضِي وهي تسحبُ خَطْوَها ... ذليلاً على شَوْكٍ مُدَمٍّ ومُوضِمِ[1]

تكادُ عيونُ الطفلِ تسأل مَنْ أنا ... إلى أين أمضي يا فيافي تكلَّمِيْ؟

أتحـمِـلُـنـي دورُ الـنـصـارى وبـيـعـةٌ ... وسـاحـاتُ شِـرْكٍ أو مـنـازلُ سُـوَّمِ

لـتُـنـزَعَ مـنـي فِـطـرَةٌ وطـهـارةٌ ... ويُـغْـرَسُ بـي شـرك وفـتـنـةُ مـاثَـمِ

❑ ولكن:

من آلامنا تبزغ آمالنا.. والرجال تصنعهم المحن.. من للأمة غير أبنائها.. أيدافع عن الحنيفية غير رجالها؟.. وإن تزعزع رجالها ولم يثبتوا على دين الله عز وجل فمن يثبت؟ أيحمي الدين الزنادقة، لا وألف لا،

---

(١) موضم: مؤلم.

فلعظمة الشمس أصابها الخسوف، ولجلالة القمر رمي بالكسوف.

قل للذي بصروف الدهر عَيَّرَنا ... هل حاربَ الدَّهْرُ إلاّ من له خطرُ؟
أما ترى البحرَ تعلو فوقه جيَفٌ ... و تسْتَقِرُّ باقصى قعره الدُّرَرُ
وفي السماء نجومٌ لا عِدادَ لها ... وليس يَكسِفُ إلا الشمسُ والقمرُ

❑ وا إسلاماه.. آن أن يقول الرجال:

لا تُهيىء كفني ما متُّ بَعْدُ ... لم يَزَلْ في أضلُعي بَرْقٌ ورَعْدُ
أنا تاريخي ألا تعرِفُهُ ... خالدٌ ينبِضُ في قلبي وسَعْدُ

❑ نعم وألف نعم.. هذه الأمة لن تموت:

سَيَصْغَى لها من عَالَمِ الغيبِ ناصِرٌ ... وللّه أوس آخرون وخزرجُ

هذا الواقع المر يحرّك القلوب التي بها حياة، يحرّك الساكن ويُعلي الهمم.

❑ وللّه در القائل:

أرى البلايا تحيطُ المرءَ تحصنُه ... حتى لئن صَحّ ذَوب الصَّخْرِ لم يذُبِ
أو صَحّ أن قناة الصلْب قد وَهنت ... فلا يلينُ إذا ما صُبّ في اللهب
ما حصحص الحقُ إلا بعد ما انسلختْ ... من عمر يوسف أعوامٌ من النّصَبِ

❑ وللّه در الدكتور «صالح آدم بيلو» حين يقول:

كلما ازدادت عليّ المِحَنُ
وتوالتْ إِحَنٌ لا تَهِنُ
وكروبٌ يصطفيها الزمنُ
وظلامٌ كافرٌ أو فِتَنُ
فلتطهير وتدريبٍ عميق

واختبارُ الذهب الصِّرْف الحقيقي
وإذا عاندت يومًا يا «رفيقي»
فلأني قد تبيّنتُ طريقي
إنْ ذَوتْ في الغُصْنِ بعضُ الورقاتِ
وتهاوتْ للثرى مستبقاتِ
ورَمتْها الريحُ في وادي الشَّتَاتِ
فعلى الأغصان زاهي الزهراتِ
وهنا طلع رضيُّ النفحاتِ
فتعلَّمْ. . ذاك عنوانُ الحياةِ
خَسِئَ الساقطُ من ماضٍ وآتِ
إن مضى فليمض ملعونَ الممات
وإذا ما حِرْتَ يومًا يا صديقي
لنمائي ولإيماني الوثيقِ
فاعتبر. . أني تبيَّنتُ طريقي. .

٢٨ ـ الثقة بنصر الله وأن المستقبل للإسلام:

والمبشرات. . والثقة بوعد اللَّه ونصره وبفجرنا الآتي تملأ النفوس بالأمل واليقين بأن المستقبل كل المستقبل للإسلام، فيثبت على طريق اللَّه مَن أراد اللَّه له الثبات، ولا عذر لمتخاذل كسول قانط يائس.

إذا أنت غُمّتْ عليك السماءُ ... وضلّت حواسك عن صبحها
فعِش دودة في ظلام القبورِ ... تغوص وتسبحُ في قيحها

❑ يا عاشق الفجر:

يا عاشق الفجر هذا الفجر يرمقنا وقد تضاءل في وجدانه الفلقُ

❑ إنه الفجر:

إني لأسمع وقع الخيل في أذني وأبصر الزمن الموعود يقترب

❑ هو ذا الفجر آت.. يبث المسك لهفته في عبيره.. ويخضرّ المكان.. هو ذا الفجر.. بسمة الإسلام في ثغر الزمن.

فيا سيد العالمين تَمَرَّدْ
وسارع إلى الضوءِ حيث انفساح المدى
فليس لقاداتنا الزائفين
مواعيد أو أمل أو هدى
سوى أن نظلّ نعاني الأنين
وتخنقنا الحفر الضيّقة[1].

❑ يا عاشق الفجر:

لا مكان لليأس مع بزوغ الفجر.. لا مكان له في زمن اللَّه القادم.

سأحكي عنكم وعني
وعن عودة المرهقين
من اليأس والذكريات البليدة
إلى زمن اللَّه حيث العقيدة
ستنفخ في لحظة كالسنين
مشاعر ألف زمان طويل[2].

(١) «تأملات في الرحلة والمصير» ـ لعماد الدين خليل.
(٢) «العودة إلى زمن اللَّه» ـ لعماد الدين خليل.

٢٩ ـ البعد عن البيئة المثبطة وقطاع الطريق إلى الله عز وجل:

على المرء أن يحترز من مجالسة البطّالين وأهل المعاصي؛ ليُقصي ولاية شياطين الجن والإنس مِن صحْن قلبه، فيُصفى من لوثة شيطانية.

والمخالطة بأهل العصيان توجب التخليط وتشتيت الهم فلا تصادقنَّ فاسقًا فإن من خان أول منعم عليه لا يفي لك.

«وأشد الناس حاجة إلى تجديد البيئة المثبطة وتنشيط الهمة: الحديث العهد بالتوبة؛ فإن من شأن التحول من بيئة المعصية إلى بيئة الطاعة أن ينسيه ما يجذبه إلى صحبة السوء وأماكن السوء، فيجتمع قلبه، ويلتئم شمله، وتتوحد همته... وهذا عين ما أشار به «العالم» الواعي على قاتل المائة حين شفّع قوله: «نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟» بقوله: «انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناسًا يعبدون اللَّه تعالى، فاعبد اللَّه معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء»[1].

* أخي:

إن الماء يفسد بقربه من الجيف وكذا الهواء، وإذا بعدت قليلاً عن مكان الجيف، يزول ما كنت تجده، فكيف بأنفاس العصاة، والنظر في الصور يُورث في النفوس أخلاقًا مناسبة لخُلُق المنظور إليه! فإياك من أهل التبطّل والتعطل واللهو والعبث.

ولا تجلس إلى أهل الدنايا ... فإن خلائق السفهاء تعدي

(١) علو الهمة ـ لمحمد أحمد إسماعيل ص(٣٥٠ ـ ٣٥١).

صحبة البطّالين والكسالى عن الطاعات تُطفئ نور القلب، وتعوِّر عين بصيرته، وتُنكسه إلى ورائه، ومن لا شعور له بهذا فميت القلب.

✍ فالبطّالون قطّاع الطريق إلى اللَّه عز وجل والدار الآخرة، فمعاشرتهم سم، والقرب منهم هلاك. .كلٌّ منهم زَمِن مريض يسعى إلى زمنى مثله، قبر يسعى إلى قبور مثله. .وامتلاء القلب من دُخان أنفاسهم يُسَوِّده ويوجب له تشتتًا وتفرّقًا، وهمًّا وغمًّا، وضعفًا وتردّدًا، فماذا يبقى منه بعد ذلك للَّه وللدار الآخرة؟

*** أخي:**

من واصل أهل الجهالة أُلبس ثوب البطالة. هذه القلوب البطّالة تشغل عن اللَّه والدار الآخرة، هممها تدور حول الأنتان والحش، ذكر الناس فاكهتها وقوتها، وذكر اللَّه حبسها وموتها. .ينادى صاحبها إلى اللَّه وإلى الدار الآخرة من مكان قريب فلا يجيب النداء.

فلا تتخذ بالسير رفقة قاعد ... وَدَعْه فإن الشوق يكفيك حاملا

ورحم اللَّه من قال:

مَشوا يعبرون الظلال
بلا فكرة أو حنين
ولا نفثة من جوى القانتين
سوى خفقة الموت عند الرقاد
وإيماءة الذابلين.

٣٠- الحرص على نصح الصالحين ووصاياهم:

أصدق الوصايا وأنفعها ما ورد في الكتاب العزيز وعلى لسان رسول اللَّه ﷺ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؛ ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾.

* وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

● وقوله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

✍ ووصايا الربانيين والصالحين خير معين على الثبات والاستقامة على الدرب: «قال رجل لمحمد بن واسع: أوصني. قال: أوصيك أن تكون ملكًا في الدنيا والآخرة. قال: كيف؟ قال: ازهد في الدنيا.

❑ وقول عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ: «أنتم إلى إمام فعّال أحوج منكم إلى إمام قوّال».

❑ وللَّه در القائل: «أنفع اليقين: ما عظّم الحق في عينك، وصَغّر ما دونه عندك، وأثبت الخوف والرجاء في قلبك».

❑ وقال هرم بن حيّان: «أوصيكم بخواتيم سورة النحل»، وقال: «أوصيكم بخواتيم سورة البقرة».

❑ وقال داود الطائي لعبد اللَّه بن إدريس يوصيه: «ارض باليسير من الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بالدنيا مع فساد الدين. ثم زاد: اجعل الدنيا كيوم صمته ثم أفطر على الموت».

❑ وقال أيضًا ـ رحمه اللَّه ـ لرجل يوصيه: «يا أخي، إنما الليل والنهار مراحل تنزل بالناس مرحلة مرحلة، حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدّم في كل يوم مرحلة زادًا لما بين يديك فافعل؛ فإن انقطاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزوّد لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك!!».

وقال لرجل آخر: «عسكر الموتى ينتظرونك».

❑ قال ابن المبارك: قال لي سفيان: إياك والشهرة؛ فما أتيت أحدًا

إلا وقد نهى عن الشهرة[١] .

❑ وقال علي بن المديني: «ودّعت أحمد بن حنبل فقلت له: تُوصيني بشيء؟ قال: نعم؛ اجعل التقوى زادك، وانصب الآخرة أمامك».

✍ وانظر إلى إمام أهل السنة أحمد بن حنبل وهو من هو يقوّي اللَّه عزمه في المحنة بنصيحة الصادقين.

❑ فعن أبي جعفر الأنباري قال: «لما حُمل أحمد إلى المأمون أُخبرتُ، فعبرت الفرات، فإذا هو جالس في الخان فسلّمت عليه، فقال: يا أبا جعفر تعنَّيت. فقلت: يا هذا، أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فواللَّه لئن أجبت إلى خلق القرآن ليُجيبن خلْق، وإن لم تُجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإنّ الرجل إنْ لم يقتلْك، فإنك تموت، لا بد من الموت، فاتق اللَّه ولا تُجب. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء اللَّه. ثم قال: يا أبا جعفر، أعِدْ. فأعدت عليه، وهو يقول: ما شاء اللَّه»[٢] .

❑ قال الإمام أحمد في سياق رحلته إلى المأمون: «صرنا إلى الرَّحْبَة، ورحلنا منها في جوف الليل، فعرض لنا رجل، فقال: أيكم أحمد بن حنبل؟ فقيل له: هذا. فقال للجَمّال: على رسْلك... ثم قال: «يا هذا، ما عليك أن تُقتل ها هنا، وتدخل الجنة؟»، ثم قال: «أستودعك اللَّه». ومضى. فسألت عنه، فقيل لي: هذا رجل من العرب من ربيعة، يعمل الصوف في البادية، يُقال له: جابر بن عامر، يُذكر بخير»[٣] .

---

(١) «السير» (٧/ ٢٦٠).
(٢) «السير» (١١/ ٢٣٨).
(٣) «السير» (١١/ ٢٤١).

وفي «البداية والنهاية» أن الأعرابي قال للإمام أحمد: «يا هذا، إنك وافد الناس فلا تكن شؤمًا عليهم، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فيجيبوا فتحمل أوزارهم إلى يوم القيامة، وإن كُنت تحب اللَّه، فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلاّ أن تُقتل. قال الإمام أحمد: وكان كلامه ممّا قوّى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع عن ذلك الذي يدعونني إليه»[١].

❑ وفي رواية أن الإمام أحمد قال: «ما سمعتُ كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في «رحبة طوق»؛ قال: «يا أحمد، إن يقتلك الحق متّ شهيدًا، وإن عشت عشت حميدًا فقوّى قلبي»[٢].

❑ وقال الإمام أحمد عن رفيقه الشاب محمد بن نوح الذي صمد وثبت في الفتنة: «ما رأيت أحدًا ـ على حداثة سنه، وقدر علمه ـ أقوم بأمر اللَّه من محمد بن نوح؛ إني لأرجو أن يكون قد خُتِم له بخير؛ قال لي ذات يوم: «يا أبا عبد اللَّه، اللَّه اللَّه. إنك لست مثلي؛ أنت رجل يُقتدى بك، قد مَدّ الخلق أعناقهم إليك، لما يكون منك. فاتق اللَّه، واثبت لأمر اللَّه» فمات وصليت عليه ودفنته»[٣].

❑ وأسماء بنت أبي بكر ـ رضي اللَّه عنهما ـ تقول لعبد اللَّه بن الزبير ابنها ـ رضي اللَّه عنهما ـ: «اللَّه اللَّه يا بني، إن كنت تعلم أنك

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٣٣٢).
(٢) «السير» (١١/ ٢٤١).
(٣) «السير» (١١/ ٢٤٢).

على حق تدعو إليه فامض عليه، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومَن معك، وإن قلت: «إني كنتُ على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي»، فليس هذا فعل الأحرار ولا مَن فيه خير، كم خلودك في الدنيا؟! القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير، واللَّه لضربة بالسيف في عز أحب إليّ من ضرب بالسوط في ذلّ». فقال: يا أماه، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثّلوا بي ويصلبوني. قالت: «يا بني إن الشاة لا يضرّها السلخ بعد الذبح، فامض على بصيرتك، واستعن باللَّه».

❑ وقالت أم سفيان الثوري له: «يا بُني لا تتعلم العلم إلا إنْ نويت العمل به، وإلا فهو وبال عليك يوم القيامة».

❑ ومن وصايا الجنيد ـ رحمه اللَّه ـ: «متى أردت أن تشرف بالعلم وتُنسب إليه وتكون من أهله قبل أن تُعطي العلم ما له عليك؛ احتجب عنك نورُه، وبقي عليك وسمه وظهوره، ذلك العلم عليك لا لك».

❑ وكتب الأوزاعي إلى أخ له: «أما بعد؛ فإنه قد أُحيط بك من كل جانب، واعلم أنه يُسار بك في كل يوم وليلة، فاحذر اللَّه والمقام بين يديه وأن يكون آخر عهدك به. والسلام».

❑ وعندما طلب من سيد قطب قبل إعدامه الاعتذار مقابل إطلاق سراحه قال: «لن أعتذر عن العمل مع اللَّه».

وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «كل كلمة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان! إن أصحاب الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئًا كثيرًا، ولكن بشرط واحد.. أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم، أن يُطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم.. أن يقولوا ما يعتقدون أنه حق، ويقدّموا دماءهم فداءً لكلمة الحق!.

إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثًا هامدة، حتى إذا متنا في سبيلها

وغذّيناها بالدماء، انتفضت حية، وعاشت بين الأحياء»[١] .

٣١ـ الصبر والمصابرة والمرابطة:

* قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

❑ قال ابن تيمية: «إنما تُنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين».

❑ وقال سفيان بن عيينة: «لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسًا».

«طالب اللَّه والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره، وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبْسه على ذكر اللَّه وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجب والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلّصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه، ومتى لم يصبر على هذين الحبسين وفرّ منهما إلى فضاء الشهوات، أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند الخروج من الدنيا، فكل خارج من الدنيا إما متخلّص من الحبس وإما ذاهب إلى الحبس»[٢] .

وقُل ساعدي يا نفسُ بالصبر ساعة ... فعند اللقا ذا الكدّ يصبح زائلاً
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ... ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلاً

❑ والصبر مع اللَّه عز وجل هو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصدّيقين يدور العبد مع مراد اللَّه الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابرًا نفسه معها، سائرًا بسيرها، مقيمًا بإقامتها، يتوجّه معها

(١) «مذابح الإخوان في سجون ناصر» ص(١١٨).
(٢) «الفوائد» لابن القيم ص(٧٢).

أين توجهت ركائبها، وينزل معها أيـن استقلّت مضاربها، فهو قد جعل نفسه وقفًا على أوامره ومحابه.

قال الجنيد: «السير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن، وهجران الخلق في جنب اللَّه شديد، والمسير من النفس إلى اللَّه صعب شديد، والصبر مع اللَّه أشد».

والصبر مع اللَّه وفاء، لا يزيغ القلب عن الإنابة، ولا الجوارح عن الطاعة، فتُعطى المعية حقها من التوفية.

والصبر من آكد المنازل في طريق المحبة وألزمها للمحبين، وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة، وبقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يُعلم صحة محبته.

ويصبر الإنسان عن المعصية بمطالعة الوعيد: إبقاء على الإيمان وحذرًا من الحرام، وأحسن منها الصبر عن المعصية حياء.

ويصبر الإنسان عن التقاعس لنصرة دين اللَّه، يصبر عن التردد والشك، يصبر عن كل معصية إجلالاً للَّه تبارك وتعالى أن يُعصى وهو يرى ويسمع، ويترك المعاصي حبًّا للَّه عز وجل، وأفضل الترك ترك المحبين، ويترك المعصية ظفرًا بعدوه، وقهر الشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة أي فرحة عند الصابرين.

يصبر عن المعصية وينقاد إلى الجاذب الأعلى، ويصعد درجات وترفرف روحه إلى المحل الأعلى وإلى الرفيق الأعلى.

ويصبر على الطاعة وهو أفضل أنواع الصبر يصبر على البذل في طاعة اللَّه، ويصبر على التبذل للَّه في مرضاته وطاعته.

ويصبر على البلاء وهو بضاعة الصديقين.. يصبر على الجوع

والفقر والحرمان والإيذاء.. يصبر على الفتن ويسأل ربه الثبات.

✍ فتنة الغربة والاستيحاش بالعقيدة، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقًا في تيار الضلالة، وهو وحده موحش غريب طريد.

✍ فتنة أن يجد المؤمن دولاً وأممًا غارقة في الرذيلة، والكفر، وهي مع ذلك راقية في مجتمعها، متحضرة في حياتها وهي غنية قوية، وهي مشاقة للّه!.

✍ ويصبر على فتنة إقبال الدنيا على المبطلين، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين، وتهتف لهم الدنيا، وتتحطم في طريقهم العوائق، وتُصاغ لهم الأمجاد، وتصفو لهم الحياة. وهو مهمل منكر لا يُحِس به أحد، ولا يحامي عنه أحد، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من الدنيا شيئًا.

✍ ويصبر المؤمن وهو يرى الشر نافشًا، والخير ضاويًا، لا يجد نصيرًا من أبناء الأرض يدافع عنه.

وفتنة النفس والشهوة، وجاذبية الأرض، والدعة والاطمئنان والرغبة في المتاع والسلطان. وفتن الشبهات، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال.

وبالصبر تصهر النفس، وينفى عنها الخبث وتثبت على الطريق.

✍ الصبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوك، والمرابطة لزوم ثغر القلب لئلا يهجم عليه الشيطان، فيملكه أو يخربه أو يُشعثه.

* * *

٣٢ ـ جعل الموت منك دائمًا على بال، وجعل الجنة والنار نُصب العين:

من علم أن الأنفاس تعدّ، وأن النفس قد يخرج ولا يعود، وأن العين قد تطرف ولا تطرف الأخرى إلا بين يدي اللَّه عز وجل، وأن يومه أو ليلته آخر ما بقي له من الدنيا أعطى المجهود من نفسه يومه وليلته، وأحسن عمله، واستقام على الدرب بعد يقينه أن العبد يحشر ويُبعث على ما مات عليه، فيجتهد في تصحيح المعاملة على أحسن ما تكون، وهو يوقن أيضًا أن العبرة بالخواتيم فيضع نصب عينيه أن لا يفضحه ميراثه يوم موته..

ولذا نصح رسول اللَّه ﷺ بالإكثار من ذكر هادم اللذات من أجل هذا.

وكان الربيع بن خثيم قد حفر لنفسه قبرًا في داره ينزل إليه في اليوم مرات، ثم يخرج ويقول: «يا ربيع ها قد خرجت فاعمل لقبر إن نزلت فيه تقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ولا تجاب إلى يوم القيامة». وكان أحد السلف يقف على شفير القبر ويقول: «أنت واللَّه بيتي حقًّا، وإن استطعت أن أعمرك لأفعلن».

٣٣ ـ ومن وسائل الثبات تذكّر الجنة أبدًا:

فالجنة بلاد الأفراح، وسلوة الأحزان، ومحطّ رحال المؤمنين، والنفس مفطورة على عدم التضحية والعمل والثبات إلاّ بمقابل يُهوِّن عليها الصعاب ويذلّل لها ما في الطريق من عقبات ومشاق.

فالذي يعلم الأجر تهون عليه مشقة العمل، وهو يسير ويعلم بأنه

إذا لم يثبت فستفوته جنة عرضها السماوات والأرض، ثم إن النفس تحتاج إلى ما يرفعها من الطين الأرضي ويجذبها إلى العالم العلوي.

● وكان النبي ﷺ يستخدم ذكر الجنة في تثبيت أصحابه، ففي الحديث الحسن: مرّ رسول الله ﷺ بياسر وعمّار وأم عمار وهُم يُؤْذَوْن في الله تعالى، فقال لهم: **«صبراً آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة»**[1].

● وقال رسول الله ﷺ: **«ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها»**[2].

وانظر إلى من اشتاقوا إلى الجنة بأي عمل ودّعوا الدنيا: أنس بن النضر، وجعفر الطيار، وحرام بن ملحان، وعمير بن الحمام، وعبد الله ابن رواحة.

* وذكر النار:

ينصب الأبدان ويذبل الأرواح خوفًا من سعيرها وزقومها فيحول بين المؤمنين وبين التردد وعدم الاستقامة خوفًا من حجبهم عن مولاهم وفتنتهم على النار. وأخبار الربيع بن خثيم، وطاووس، وشداد بن أوس ومحمد بن المنكدر، وعلي بن الفضيل وسفيان الثوري وابن المبارك لا تخفى على أحد في الدنيا.

* * *

(١) حسن صحيح: رواه الحاكم (٣/ ٣٨٣)، وهو حديث حسن صحيح. انظر «تخريج فقه السنة» للألباني ص(١٠٣).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، والطبراني في «الأوسط» عن أنس، وحسّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٩٥٣).

٣٤ـ معرفتك بقدر رسولك ﷺ:

متى استقر في القلب قدر رسول اللَّه ﷺ.. وعلم السائر على الدرب مَن يتبع؟ ومن رسوله؟ استحيى السائر من نفسه ألا تثبت قدمه في سيره على محجته البيضاء، ومتى أيقن العبد أنه سيلقاه يومًا على حوضه في عرصات القيامة، فإما أن يطرد عن حوضه وإما أن يسقى من حوضه.. استحيا من نبيه ﷺ وخشى عتابه له في العرصات: هل وجدت خيرًا مني ففررت عني؟

● **«أمُتَهَوِّكون[1] أنتم كما تهوّكت اليهود والنصارى؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي؟»**.

● ولفظ الدارمي: **«والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني، لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيًّا وأدرك نبوتي لاتبعني»**[2].

❑ وللَّه در من قال:

وإذا نظرت إلى أميري زادني ... حبًّا له نظري إلى الأمراء

❑ وقول من قال:

ومما زادني شرفًا وتيهًا ... وكدت بأخمصي أطأ الثُّريّا

دخولي تحت قولك يا عبادي ... وأن صيّرت أحمد لي نبيًّا

❑ وإذا علمت أنه ﷺ صاحب الشفاعة العظمى في الخلق جميعًا

---

(١) أمتهوّكون: أي: أمتحيرون؟

(٢) **حسن**: رواه أحمد والبيهقي في «شعب الإيمان»، والدارمي عن جابر، وقال الألباني في التعليق على مشكاة المصابيح (١/ ٦٣): «وفيه مجالد بن سعيد وفيه ضعف، ولكن الحديث حسن عندي؛ لأن له طرقًا كثيرة عند اللالكائي والهروي وغيرهما».

يوم القيامة، وكونه سيد ولد آدم، وغفر اللَّه له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، ويخر ساجدًا تحت العرش فيفتح اللَّه عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبله، ويقف ﷺ على منبر أطول المنابر وأنورها، ويتجلى له الرب ولا يتجلّى لنبي قبله ﷺ، وهو أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأول من يُؤذن له أن يرفع رأسه، وفتح اللَّه به، ويأتي آمنًا يوم القيامة صلوات اللَّه وسلامه عليه.

✍ وهو ﷺ قائد المسلمين، وإمام المرسلين وأول شافع وأول مشفع، وأكثر الأنبياء عليهم السلام تبعًا، ولم يصدّق نبي من الأنبياء ما صُدِّق صلى اللَّه عليه وآله وسلم، وأول من يشفع في الجنة، وأول شفيع يوم القيامة، وأول من يقرع باب الجنة أو يحرك حلق الباب، وأول من يأخذ بحلق باب الجنة فيقعقعها، ولا يفتح باب الجنة لأحد قبله، وأول من يدخل الجنة، وأعظم الخلق أجرًا يوم القيامة، وذلك لاجتهاده ﷺ في العبادة ولكثرة أتباعه الذين يشاركهم في الأجر.

✍ وهو ﷺ أول من ينشق عنه القبر، وأول الناس خروجًا إذا بعثوا.

✍ لواء الحمد بيده ﷺ، فما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائه ﷺ، وهو خطيبهم وقائدهم إذا وفدوا، ومبشِّرهم إذا أبلسوا، وأكرم ولد آدم على ربه، والكرامة والمفاتيح يومئذ بيده.

✍ أول من يجيز على الصراط يوم القيامة، وأقربهم مجلسًا من الرب تبارك وتعالى إذا اجتمعوا، وهو أول النبيين وآخرهم، وهو خاتم النبيين لا نبي بعده، وهو صاحب الوسيلة وهي أعلى منزلة في الجنة، وهو صاحب المقام المحمود، وأُعطي ﷺ جوامع الكلم وخواتمه،

وأُوتي بمفاتيح خزائن الأرض، ونُصر بالرعب من مسيرة شهر، وجعلت له الأرض مسجدًا وطهورًا، وأُحلت له الغنائم ولم تحلَّ لأحدٍ قبله، وبُعث ﷺ إلى الناس عامة إلى الأحمر والأسود.

✍ ونزل عليه ملك لم ينزل على أحد من قبله، وبشّره بنورين لم يؤتهما نبي قبله ألا وهما فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، وأوتي حوضًا أبرد من الثلج وأحلى من العسل وأطيب ريحًا من المسك، أكوابه مثل نجوم السماء أو أكثر، وأباريقه من الذهب والفضة، وأعطاه ربه الكوثر وهو نهر في الجنة ترد عليه الأمّة، وحافتاه قباب الدر المجوّف، وطينه مسك أذفر، يجري على الدرّ والياقوت، وطعمه أحلى من العسل، وماؤه أشد بياضًا من الثلج.

✍ وجعله اللَّه عز وجل خير الناس نفسًا ونسبًا وبيتًا، وجعل كل نسب وسبب منقطعًا يوم القيامة إلا ما كان من نسبه وسببه، وكثرة أسمائه تدل على رفيع منزلته وكريم صفاته، فهو محمد وأحمد والحاشر والعاقب والمقفى ونبي التوبة ونبي المرحمة ونبي الملحمة، وقد سمّاه اللَّه رءوفًا رحيمًا.

✍ شقي عبد ذُكر عنده النبي ﷺ ولم يصلِّ عليه، ومن صلى عليه واحدة صلى اللَّه بها عليه عشرًا، وما بين منبره وبيته روضة من رياض الجنة، وفُضّل ﷺ بالمفصّل، فقد أعطي مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الزبور المئين، ومكان الإنجيل المثاني، وفُضِّل بالمفصل، ومعجزته ﷺ باقية وهي القرآن، وغيره من الأنبياء عليهم السلام كانت معجزاتهم لمن عاصرهم، ومَنّ اللَّه عليه بالإسراء والمعراج، وشُقّ صدره الشريف، فأُخرج نصيب الشيطان منه، وقد أخذ اللَّه على النبيين

من قبله ﷺ أن يؤمنوا به، وهو أول المسلمين، وأقسم اللَّه عز وجل بحياته ﷺ ولم يفعله لنبي غيره، وكذا أقسم ببلده حال حلوله ﷺ فيها. وناداه اللَّه عز وجل بالرسالة والنبوة وخاطب غيره بأسمائهم وهذا لمزيد شرفه وفضله ﷺ.

الشمس مِنْ حُسّاده والنصر من ... قرنائه والسيف من أسمائه
أين الثلاثة من ثلاث خلاله ... مِنْ حُسْنه وإبائه ومَضَائه
مضت الدُّهورُ ومَا أَتَيْنَ بمثله ... ولقد أتى وعجزْنَ عن نظرائه

«أُلبس إهاب الهيبة، وتُوِّج تاج السيادة، وضُخّ بأذكى خَلوق أذكى الأخلاق، وأُعطِي لقطع مفازة الدنيا جواد الجود، فهو هلال شهر الكمال، وأمير جيش الجود، ورُوح جثمان الكون، وحشاشة نفس المملكة، خرست لما جاء به ألسن الفصاحة. كل نبي معجزته مخلوقات اللَّه تعالى، ومعجزة نبينا كلام الحق.

ولقد شارك الأنبياء في فضائلهم وزاد، أين سطوة ﴿لاَ تَذَرْ﴾ من حلم «اهد قومي»؟ أين انفراق البحر من انشقاق القمر؟ أين انفجار الحجر من نبع الماء بين الأصابع الشريفة؟ أين التكليم عند الطور من قاب قوسين؟ أين تسبيح الجبال في أماكنها من تقديس الحصا في الكفّ؟ أين علو سليمان بالريح من ليلة المعراج؟ أين إحياء عيسى الأموات من تكليم الذراع؟ كل الأنبياء ذهبت معجزاتهم بموتهم، ومعجزة الأكبر قائمة على منار: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾، تنادي: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، كسّر سلطانه كسرى، وأسرى رُعبَه فصارت الملوك أسرى»[1].

(١) «من مقامات ابن الجوزي».

صلّى عليك اللّه يا عَلَم الهدى ... واستبشرت بقدومك الأيّامُ
هتفتْ لكَ الأرواحُ من أشواقها ... وازّيّنت بحديثك الأقلام

✍ إذا تحدّثنا عنه تدفّق الخاطر، بكل حديث عاطر، وجاش الفؤاد، بالحب والوداد، ونسيت النفس همومها، وأغفلت الروح غمومها، وسبح العقل في ملكوت الحب، وطاف القلب بكعبة القرب، هو الرمز لكل فضيلة، وهو قبة فلك كل خصال جميلة، وهو ذروة سنام المجد لكل خلال جميلة...

يا مَن تَضَوَّعَ بالرِّضوان أَعْظُمُه ... فطاب من طيب تلك القاعُ والأكَمُ
نفسي الفداءُ لقبرٍ أنت ساكِنُه ... فيه العفاف وفيه الجودُ والكَرمُ

❑ صلى عليك اللّه يا رسول اللّه.

الفرسُ والرومُ واليونانُ إن ذُكروا ... فعند ذكرِكَ أَسْمَالٌ على قَزَمِ
هُمْ نَمّقُوا لوحةً بالرِّق هائمةً ... وأنتَ لوحُك محفوظٌ من التُّهَمِ

✍ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، وإنك لعلى خُلُق عظيم، وإنك لعلى نهجٍ قويم، ما ضلّ، وما زلّ، وما غلّ، وما ملّ، وما كلّ.

فما ضَلّ؛ لأن اللّه هاديه، وجبريل يكلّمه ويناديه، وما زلّ؛ لأن العصمة ترعاه، واللّه أيّده وهداه، وما ذلّ؛ لأن النصر حليفه، والفوز رديفه، وما غلّ؛ لأنه صاحب أمانة وصيانة، وديانة، ومَا ملّ؛ لأنه أُعطِي الصبر، وشرح له الصدر، ومَا كَلّ؛ لأن له عزيمة، وهمّة كريمة، ونفسًا طاهرة مستقيمة.

إذا حضر الشتاء فأنت شمسٌ ... وإن حَلَّ المصيفُ فأنت ظِلُّ

* * *

صلى اللَّه عليه وسلم.

أُثني على مَن؟ أتدري من أُبَجِّلُهُ؟ ... أما علمت بمن اهْتَدَيْتُه كَلِمي
أبْهى من البدرِ في قلب التمام وقُلْ ... أسخَى مَن البَحْرِ بَلْ أرسى منَ العَلَمِ
أغَرُّ تُشرق من عَيْنَيْه مَلْحَمةٌ ... من الضياء لتجلو الظُّلْمَ والظُّلَمِ
بنُورِ هَدْيِكَ كَحَّلْنَا محاجرنا ... لما كتبنا حروفًا صُغْتُها بِدَمِ
مَن نحنُ قبلَكَ إلا نقطةٌ غَرَقَتْ ... في اليمِّ بَلْ دَمْعَةٌ خَرْسَاءُ في القِدَمِ
أهدَيتنا منبرَ الدنيا وغار حرا ... وليلةَ القدر والإسراء للقممِ
والحوض والكوثر الرَّقْراق جئتَ به ... أنت المُزَمِّل في ثوب الهُدى فقُمِ
بك اسْتَفَقْنَا على صُبْحٍ يُؤَرِّقُهُ ... بلالُ بالنغمة الحَرّا على الأَطَمِ

فمن كانت هذه نقطة من بحر فضله وخصاله فكيف تعرف النفس طريقًا غير طريقه، وكيف ترنو العين إلى غير نور هديه؟

وليعدّ كل منا جوابًا عند الوقوف على حوضه.

أنت القتيل بكلّ من أحببته ... فاختر لنفسك في الهوى مَن تصطفي

* * *

٣٥- جعلُ الهمّ همًّا واحدًا، وجعلُه في اللّه والدار الآخرة، وحُبّ اللّه والشوق إلى لقائه:

من جعل الهمَّ همًّا واحدًا وجعله في اللَّه، «لا يزال اللَّه يرقِّيه طبقًا بعد طبق ومنزلاً بعد منزل، إلى أن يوصله إليه، ويُمكِّن له بين يديه.. والسعيد كل السعيد، والموفَّق كل الموفق: مَن لم يلتفت عن ربه تبارك وتعالى يمينًا ولا شمالاً، ولا اتخذ سواه ربًّا ولا وكيلاً، ولا حبيبًا ولا

مدبرًا، ولا حكمًا ولا ناصرًا ولا رازقًا.

فإن استمرَّ على حاله واقفًا بباب مولاه لا يتلفت عنه يمينًا ولا شمالاً، ولا يجيب غير مَن يدعوه إليه - رُجِي له أن يستغرق قلبه في أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحق، فيبقى قلبه سابحًا في بحرٍ من أنوار آثار الجلال، فتنبع الأنوار من باطنه، حتى يجد الملكوت الأعلى كأنه في باطنه وقلبه، ويجد قلبه عاليًا على ذلك كله، صاعدًا إلى من ليس فوقه شيء، ثم يرقيه اللَّه سبحانه، فيُشهده أنوار الإكرام بعدما شهد أنوار الجلال، فيستغرق في نور من أنوار أشعة الجمال، وفي هذا المشهد يذوق المحبة الخاصة المُلهبة للأرواح والقلوب، فيبقى القلب مأسورًا في يد حبيبه ووليِّه، ممتَحنًا بحبِّه.

فيا له من قلب ممتحن مغمور، مستغرق بما ظهر له من أشعة أنوار الجمال الأحَدي، والناس مفتونون ممتحنون، بما يفنى من المال والصُّور والرياسة، معذَّبون بذلك قبل حصوله، وحال حصوله، وبعد حصوله، وأعلاهم مرتبة مَن يكون مفتونًا بالحُور العين، أو عاملاً على تمتُّعه في الجنة بالأكل والشرب واللباس والنكاح، وهذا المحبُّ قد ترقَّى في درجات المحبَّة على أهل المقامات، ينظرون إليه في الجنَّة كما ينظرون إلى الكوكب الدُّري الغابر في الأفق؛ لعلوِّ درجته وقرب منزلته من حبيبه ومعيَّته معه، فإن المرء مع من أحبَّ، ولكلِّ عمل جزاء، وجزاء المحبَّة: المحبَّةُ والوصول والاصطناع والقرب، فهذا هو الذي يصلح، وكفى بذلك شرفًا وفخرًا في عاجل الدنيا، فما ظنُّك بمقاماتهم العالية عند مليك مقتدر»[1].

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٣٨١، ٣٨٢) بتصرُّف.

✍ ولله درُّ ابن القيم حيث يقول: «إن الله سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه، وهمته متعلقة بغيره، وإنما يُودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنًى مع الله، والغنى فقرًا دون الله، والعزَّ ذلاً دونه، والذل عزًّا معه، والنعيم عذابًا دونه، والعذاب نعيمًا معه، فلا يرى الحياة إلا به ومعه، والموت والألم، والهم والغم والحزن، إذا لم يكن معه؛ فهذا له جنتان: جنة في الدنيا معجَّلة، وجنة يوم القيامة.

ولله ما أحلاه! عكوف القلب على الله عز وجل وحده كعكوف البدن في المسجد لا يفارقه!! وإن كانت الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة، فكيف تدخل محبة الله عز وجل قلبًا مُلئ بالصُّور والأغيار؟!

أردناكم صِرْفًا فلمَّا مُزِجتمُ ... بعُدْتمْ بمقدارِ التفاتكُمُ عنَّا
وقلنا لكم: لا تُسكنوا القلبَ غيرَنا ... فاسكنتُمُ الأغيارَ ما أنتمُ منَّا

ومَن لم يعكُف قلبه على الله وحده؛ عكف على التماثيل المتنوِّعة، كما قال إمامُ الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]؛ فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظُّ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظّه العكوف على الربّ الجليل»[1].

«فيا حسرةَ المحبِّ الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بَخسٍ، وشهوة عاجلة، ذهبت لذتها، وبقيت تبعتها، وانقضت منفعتها، وبقيت مضرتها، فذهبت الشهوة، وبقيت الشقوة، وزالت النشوة، وبقيت الحسْرة!!

✍ فوا حسرتاه لصبٍّ جُمع له بين الحسرتين: حسرة فوت المحبوب

(١) «الفوائد» ص(٢٥٥ ـ ٢٥٦) بتصرف.

الأعلى والنعيم المقيم، وحسرة ما يقاسيه من النصَب في العذاب الأليم!! فهنالك يعلم المخدوع أيّ بضاعةٍ أضاع، وأن من كان مالِك رِقِّه وقلبه لم يكن يصلح أن يكون له من جملة الخدم والأتباع.

✍ فأيُّ مصيبة أعظم من مصيبة مَلِك أُنزل عن سرير ملْكه، وجعِلَ لِمَن لا يصلح أن يكون مملوكَه أسيرًا، وجُعِلَ تحت أوامره ونواهيه مقهورًا؟! فلو رأيتَ قلبه وهو في يد محبوبه، لرأيته:

كعصفورةٍ في كفِّ طفلٍ يسومها ... حياضَ الرَّدى والطفلُ يلهُو ويلعبُ

✍ ولو شاهدتَ حالَهُ وعيْشَهُ؛ لقلتَ:

وما في الأرض أشقى من مُحِبٍّ ... وإنْ وجد الهوى حُلوَ المذاقِ
تراهُ باكيًا في كلِّ حينٍ ... مخافة فُرقةٍ أو لاشتياقِ
فيبكي إن نأوْا شوقًا إليهمْ ... ويبكي إن دَنَوْا حذرَ الفِراقِ

فهل يليق بالعاقل أن يبيع هذا المَلِك المطاعَ لمن يسومه سوء العذاب، ويُوقع بينه وبين وليِّه ومولاه الحقِّ الذي لا غناء له عنه ولا بد له منه ـ أعظمَ الحجاب؟! فالمحب بمن أحبه قتيل، وهو له عبد خاضع ذليل؛ إن دعاه لبَّاه، وإنْ قيل له: ما تتمنَّى؟ فهو غاية ما يتمنَّاه، لا يأنس ولا يسكن إلى سواه، فحقيقٌ به أن لا يُمَلِّك رِقَّه إلا لأجَلِّ حبيب، وأن لا يبيع نصيبه منه بأخس نصيب». اهـ[1].

فوا حسرتاه على بصيرة شاهدت هاتين الحياتين على ما هما عليه، وعلى همة تُؤثر الأدنى على الأعلى، وما ذاك إلا بتوفيق مَن أزِمَّة الأمور بيديه، ومنه ابتداء كل شيء وانتهاؤه إليه؛ أقْعَدَ نفوس من غلبت عليهم

(١) من «إغاثة اللهفان».

الشقاوة عن السفر إلى ربهم وهذه الدار وأطيب الجوار، وجذب قلوب من سبقت لهم منه الحُسنى، فأقامهم في الطريق، وجعل همهم واحداً وجعله فيه، وسهَّل عليهم ركوب الأخطار. فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلِّفين، وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين، وعُقدت الغَبَرة وثار العَجَاج، فتوارى عنه السائرون والمتخلفون، وسينجلي عن قريب، فيفوز العاملون ويخسر المبطلون.

أخي: وجِيبُ القلب وخفقانه لمن له نُعوت الجمال والجلال والكمال.

قومٌ تخلَّلهُمْ زهْوٌ بسيِّدهمْ ... والعبدُ يزهو على مقدار مولاهُ
تاهُوا بهِ عمَّنْ سواهُ لهُ ... يا حسْنَ رؤيتهم في حُسْن ما تاهوا

* * *

نحنُ الذين استيقظتْ بأذانِهم ... دنيا الخليقةِ مِنْ تهاويلِ الكَرَى
نحن الذين إذا دُعوا لصلاتِهم ... والحربُ تسقي الأرض جامًا أحمرا
جعلوا الوجوه إلى الحجاز وكبّروا ... في مَسْمَع الكَوْنِ العظيمِ فكبّرا
مَن غيرنا هدمَ التماثيل التي ... كانت تُقَدِّسُها جَهَالات الورى
حتى هوتْ صُورُ المعابدِ سُجَدًا ... لجلالِ من خَلَقَ الوجودَ وصَوَّرَا
ومن الذي بَذَل الحياةَ رخيصةً ... ورأى رِضاكَ أعزَّ شيء واشترى

* * *

بلغت نهايةَ كلِّ أرضٍ خيلُنا ... وكأن أبحرها رمال البِيدِ
في محمل الأكوانِ كان هلالُنا ... بالنصر أوضحَ من هلالِ العيدِ

في كل موقعةٍ رفعنا رايةً ... للمجد تعلنُ رايةَ التوحيدِ
أممُ البَرِيَّة لم تكن من قبلنا ... إلا عبيداً في أسار عبيدِ
بلغت بنا الأجيالُ حُرِّيَاتِها ... مِن بَعْدِ أصفادٍ وذُلٍّ قيودِ

* * *

طريق
العودة لأمجادنا
«لن يصلح آخر هذه الأمة
إلا بما صلح به أولها»

طريق العودة لأمجادنا

• ما الطريق لعودة مجدنا؟ وما هو السبيل؟

إن المشوار طويل طـويل، وإن الجهد المطلوب غاية فـي الضخامة، وإن الوسائل المطلوبة أكثر بكثير مما هو مُعَدّ.

إن الأمة ـ إلا مـا رحم ربـك ـ في حالـة «الغـثاء» التـي وصفـها رسول اللَّه ﷺ قـبل أربعة عشر قـرنًا حين قال: «**يُوشك أن تـداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكـلة إلى قصعتها**»، قالوا: أَمِن قلة نحن يومئذ يا رسول اللَّـه؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كـثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن اللَّه المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن**»، قالوا: وما الوهن يا رسول اللَّه؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[1].

✍ وهناك معالم لا بدّ من مراعاتها للعودة لمجدنا:

أولاً: التصفية والتربيـة:

تصفية الـعقيدة مما شابها من الـعقائد الباطلة والـفاسدة والخرافات والشركيات، وتـصفية السنة مما أُدخل فيـها مما ليس منها، وذلك بـتمييز الصحـيح والحسن من الـضعيف والموضـوع، وما لا أصل له، وتصـفية الفقه مما شابه من الآراء والمحدثات المخالفة.

❑ يقول الشـيخ الألباني ـ رحمه الـلَّه ـ: [« أنا أرى أن أي إصلاح يجب أن يقوم بـه الدعاة إلى الإسلام، والناشدون لإقـامة دولة الإسلام بإخلاص هو أن يعودوا إلى أن يُفَهِّموا أولاً أنفـسهم؛ ويُفَهِّموا الأمة ثانيًا الدين الذي جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك لا سبيل إليه إلا

(١) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام.

بدراسة الكتاب والسنة».

✍ ويقول: «نحن نعتقد أن كل ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام يجب أن نتبناه دينًا أولاً، مع وزنه بأدلة الشريعة؛ إن كان فرضًا ففرض، وإن كان سنّة فسنّة».

✍ ويقول: «الرجوع إلى الدين هو الرجوع إلى الكتاب والسنة؛ لأن ذلك هو الدين باتفاق الأئمة، وهو العصمة من الانحراف والوقوع في الضلال».

✍ ويقول: «إذا أردنا العزة من اللَّه تبارك وتعالى، وأن يرفع عنا الذل وينصرنا على العدو؛ فلا يكفي لذلك ما أشرنا إليه من وجوب تصحيح المفاهيم، ورفع الآراء التي أوّلت الأدلة الشرعية عند أهل العلم.

وإنما هناك شيء آخر مهم جدًّا - هو بيت القصيد - لتصحيح المفاهيم؛ ألا وهو العمل؛ لأن العلم وسيلة للعمل، فإذا تعلّم الإنسان، وكان علمه صافيًا مصفّى، ثم لم يعمل به؛ كان بدهيًّا جدًّا أن هذا العلم لا يثمر، فلا بد من أن يقترن مع هذا العلم العمل.

ويجب على أهل العلم أن يتولَّوْا تربية النشء المسلم الجديد على ضوء ما ثبت في الكتاب والسنة، فلا يجوز أن ندع الناس على ما توارثوه من مفاهيم وأخطاء؛ بعضها باطل قطعًا باتفاق الأئمة، وبعضها مختلف فيه وله وجه من النظر والاجتهاد والرأي، وبعض هذا الاجتهاد والرأي مخالف للسنة.

فبعد تصفية هذه الأمور، وإيضاح ما يجب الانطلاق والسير فيه، لا بد من تربية النشء الجديد على هذا العلم الصحيح.

وهذه التربية هي التي ستثمر لنا المجتمع الإسلامي الصافي وبالتالي تقيم لنا دولة الإسلام.

✍ وبدون هاتين المقدِّمتين: «العلم الصحيح»، و«التربية الصحيحة» على هذا العلم الصحيح يستحيل في اعتقادي أن تقوم قائمة الإسلام أو حكم الإسلام أو دولة الإسلام.

✍ وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام جعل العلاج في رفع الذل المخيّم علينا إنما هو بالرجوع إلى الدين، فيجب علينا إذن أن نفهم الدين بواسطة أهل العلم فهمًا صحيحًا موافقًا للكتاب والسنة، وأن نربي النشء الصالح الطيب على ذلك، وهذا هو الطريق لمعالجة المشكلة التي يشكو منها كل مسلم.

✍ وقد أعجبتني كلمة ـ هي في الواقع كأنها خلاصة لما قلته أو بيَّنْتُه آنفًا ـ لبعض المصلحين في العصر الحاضر، وهي في رأيي كأنها من وحي السماء؛ يقول: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تُقَمْ لكم على أرضكم».

ولا بد من أن نصلح نفوسنا على أساس من إسلامنا وديننا، وهذا لا يكون بالجهل؛ وإنما بالعلم؛ حتى تقوم دولة الإسلام على أرضنا هذه»[1].

* تربية الناس على عقيدة أهل السنة والجماعة:

❑ يقول الشيخ الألباني: «إن كثيرًا من المسلمين يشهدون أن

(١) نقولات من كتاب «التصفية والتربية وحاجة المسلمين إليهما» للشيخ الألباني ـ المكتبة الإسلامية بالأردن.

إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه، وهم لا يلتزمون لوازم هاتين الشهادتين، وهذا بحث طويل؛ فكثير من المسلمين اليوم ـ حتى الذين يُعَدّون من المرشدين ـ لا يعطون (لا إله إلا اللَّه) حقها من التفسير، ولقد انتبه لهذا كثير من الشباب المسلم والكُتّاب المسلمين؛ وهو أنّ من حق هذه الشهادة أن الحكم للَّه، نعم؛ أريد أن أقولها صريحة: لقد انتبه الشباب المسلم والكُتّاب المسلمين اليوم إلى هذه الحقيقة؛ وهي أن الحكم للَّه عز وجل وحده، وأن تسليط القوانين الأرضية، واعتمادها لحل المشاكل القائمة اليوم؛ ينافي كون الحكم للَّه عز وجل»[1].

* قاعدة هامة:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ:

«فأما بعدما بعث الرسول ﷺ، فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يُسلم فإنه يكون في جاهلية وإن كان في دار الإسلام. فأما في زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة.

والجاهلية المقيّدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من المسلمين»[2].

هذا في زمان ابن تيمية فكيف لو رأى زماننا هذا؟

---

(١) «التصفية والتربية» للألباني ص(٢٥ ـ ٢٦).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» ص(٧٨ ـ ٧٩).

✍ «إن بعض الدعوات والانحرافات التي نشأت في المسلمين تنادي بتوجه المسلمين إلى عبادة غير اللَّه، واتباع منهج غير منهج اللَّه، فعادت في ديار المسلمين كثير من مظاهر الشرك...

وقد تبنت كثير من الفرق مناهج مضادة للمنهج الإسلامي، ومن ذلك تبني المنهج الفلسفي الكلامي في إرساء العقيدة والإيمان، وهذا المنهج مزاحم للمنهج الإيماني القرآني القائم على الوحي، وعمدة المنهج الفلسفي الكلامي نظريات عقلية، وأصول فلسفية، ومصطلحات منطقية، وهذا المنهج يختلف عن المنهج الإيماني القرآني في طريقة الاستدلال وفي المقصد والهدف»[1].

✍ ومن المناهج المخالفة للمنهج الإسلامي الصحيح المنهج الصوفي الذي يغرق في الفلسفة من الحلول ووحدة الوجود، والتواكل.

✍ وهناك لوثة الفكر الإرجائي التي تخرج العمل عن مسمى الإيمان، فضلاً عن الفكر العلماني والدعوات التي تناقض الإسلام من الشيوعية والبعثية والدعوات التي تنادي بالاعتزاز بالحضارات الكافرة البائدة كالفرعونية والآشورية والبابلية، والدعوات التي تقوم على المبادئ الضالة على أساس القومية والوطنية وهي دعوات تضاد الإسلام وتحاده.

✍ فلا بد من تربية سليمة على أساس من العقيدة السليمة عقيدة السلف وتجلية قضايا التوحيد كلها: قضية لا إله إلا اللَّه، والحاكمية، والقضاء والقدر، ومسائل الكفر والإيمان..

---

(١) «كيف تستعيد الأمة الإسلامية مكانتها من جديد» للشيخ عمر سليمان الأشقر ص(٣٩ - ٤٤) - دار النفائس.

✍ إن مصدر الهداية الوحيد كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ بفهم سلفنا، والهدى هدى اللَّه.

✍ وعقيدة السلف قواعد وضوابط تعصم من الخطأ في مجال الاعتقاد وهناك لون آخر من العقيدة يبعث العباد إلى العمل بما جاءهم من عند اللَّه مخلصين دينهم للَّه، وهذا اللون هو الذي يجعل المسلم قوة حية متحركة عاملة، وهذا اللون من العقيدة حتى يعطي ثماره لا بد من دراسته من خلال النصوص»[1].

ثانيًا: إيجاد الكوادر والقاعدة الصلبة التي تحمل همّ الإسلام:

لا بد من إنشاء القاعدة الصلبة وتربيتها على أعلى ما يتاح لنا من مستويات التربية، وتنقيتها من الشوائب بأقصى ما يُتاح لنا من وسائل التنقية.

✍ «ووسيلتنا في التربية هي ذات الوسيلة التي استخدمها المربي الأعظم ﷺ: تعميق الإيمان باللَّه واليوم الآخر، وتعميق الصلة باللَّه، وتعويد النفوس على الحياة في معية اللَّه، والتدريب على ممارسة السلوك الإيماني في عالم الواقع.. ثم تعميق الوعي، بالوسائل التي تؤدي إلى تعميقه، على أن نأخذ في اعتبارنا أن القدوة هي الوسيلة الأولى ـ والكبرى ـ في عملية التربية، ثم تأتي بعدها الموعظة والنصائح والدروس مع الرعاية والمتابعة والدأب والصبر، حتى تستجيب النفوس ثم تستقيم.

(١) المصدر السابق ص(٦٩ ـ ٧٠).

جهد ضخم في الحقيقة، وهو على ضخامته لا يؤتي ثماره في يوم وليلة ولا يمكن استعجاله، ولا يمكن تخطيه، إذا كنا جادين في القيام بعمل ينقذ الأمة مما هي فيه ويسعى إلى تحويل الجاهلية عما هي فيه»[1].

✍ «والدرس الأول في بناء القاعدة الصلبة من كوادر الإسلام هو درس لا إله إلا اللَّه، علمًا بها، وتربية على مقتضياتها.

لا بد من التربية البطيئة الشاملة ولو استغرق ذلك عدة أجيال.. فإن دولة الخلافة التي احتاجت إلى قرون طويلة لإسقاطها تحتاج إلى قرون لإقامتها.

❑ ولا بد من استخدام كل الوسائل المتاحة في التربية:

١ ـ الوعظ: وهو وسيلة ذات إغراء شديد عند كثير من الناس واستخدام الموعظة في الدعوة أمر رباني ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولكنها حين تستخدم وحدها لا تُؤتي ثمارها.. إن اللَّه عز وجل أرسل بالموعظة رسولاً يكون هو بذاته القدوة للناس لكي يستوعبوا الموعظة أولاً ثم يطبقوا مقتضاها بعد ذلك.

❑ لقد وصفت السيدة عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ رسول اللَّه ﷺ فقالت: «كان خُلُقه القرآن».

لم يكن الرسول ﷺ مجرد خطيب يقف على المنبر ليعظ الناس، إنما كان قبل ذلك مربيًا بالقدوة في شخصه الكريم، وكانت الموعظة

(١) «كيف ندعوا الناس» محمد قطب ص(١٣٨ ـ ١٣٩) ـ دار الشروق.

وسيلة من وسائله لتوصيل الدعوة للناس.. بل إنه ﷺ هو الذي قال الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ إنه كان يتخولهم بالموعظة، أي بين الحين والحين، مخافة السآمة! السآمة من أي شيء؟ من موعظته ﷺ؟! وفي نفوس مَنْ؟! في نفوس الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ الذين كانوا يلتقطون كل كلمة يقولها ﷺ بالإقبال والرغبة والحب، ليقينهم أنها طريقهم إلى الجنة! فكيف بنا نحن البشر العاديين حين تكون كل بضاعتنا هي الوعظ والإرشاد؟!

✍ نحن لا نقول: إنَّ الموعظة وحدها لا تؤتي ثمارًا أبدًا ـ حاشا للَّه ـ وإنما نقول: إنها وحدها إنْ صلحت في أحوال معينة في إصلاح أفراد، فإنها لا تصلح لإصلاح أمة بلغ الفساد فيها مبلغه، ولا تصلح لإقامة دعوة تريد أن تعيد بناء أمة وصلت إلى درجة الغثاء.

٢ـ التربية الروحية: ضرورة لا غنى عنها في البناء.. بل لا يُتصور أن يقوم بدونها عمل دعوي على الإطلاق، إذا عنينا بالتربية الروحية تعميق الصلة باللَّه، وترقيق القلب لعبادته سبحانه، وتذكير الإنسان باليوم الآخر، وربط مشاعره بالموقف الذي يلقى اللَّه فيه.. وقد كان هذا جزءًا بارزًا وأساسيًّا من عمل الرسول ﷺ في تربية أصحابه ـ رضوان اللَّه عليهم ـ في مكة خاصة، حين فُرِض عليهم قيام الليل لتعميق هذه الصلة وتثبيتها وترسيخها.

✍ إن الإنسان في حلبة الصراع يُجهَد ويتعب، ويحتاج إلى سند يقويه، يمنعه من السقوط، ويمنع عنه الوهن الذي قد يعتريه، وهنا تبرز تلك الطاقة الروحية تقيه من الوهن، وتقوّيه على الصمود، بما تمده من

طاقة، وتشع في كيانه من نور.

✍ والإنسان في حلبة الصراع قد يستوحش، حين يتكاثر عليه الأعداء، ويجد نفسه وحده، أو يجد من حوله مستضعفين مثله لا يملكون نصره، وهنا تبرز تلك الطاقة الروحية تُؤنسه بذكر اللَّه فلا يستوحش، وتذكّره بالثمرة الجنيّة في اليوم الآخر فيجدّ في السعي.

✍ والإنسان في حلبة الصراع قد يفتقد المتاع الحسي، والأهل والأصحاب، والفراش الوثير، والطعام الوفير، فتحنّ نفسه لذلك كله، أو لشيء منه، فيثّاقل إلى الأرض، وهنا تبرز الطاقة الروحية توازن في حسّه ثقلة الأرض، وتعوّضه عن حرمانه بمتاع أعلى: معية اللَّه، ورضوان اللَّه، والجنة.

إنها الزاد التي يحتاج إليه المسافر ليقطع الرحلة في أمان، إن هذه التربية الروحية هي زاد الطريق ومدد الروح وجلاء القلب، إنها تفتح القلب، وتوثق الصلة باللَّه، تشرق بالنور، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة.

✍ لا بد من الربانية لبعث الأمة الإسلامية.

✍ «إن سر الأسرار في نواقض العمل الإسلامي في القرن الرابع عشر يكمن في الانطلاق إلى الدعوة وطيّ فكرة الإنضاج في الربانية»[1].

✍ ولا ربانية بلا عبادة، بل الربانية علَم على العبادة، ومبنى العبادة على الذكر، والذكر الكثير هو الطريق للوراثة النبوية ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ [الأحزاب: ٢١]، ولا ربانية بلا علم ﴿**وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ**

(١) «إحياء الربانية» لسعيد حوى ص(١٩) ـ دار السلام.

الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. ولا ربانية إلا ببيئة تربي على العلم وعلى الذكر، ويتحرك فيها الرباني نحو الخارج: بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعلم والتعليم والنصيحة والخدمة»[1].

إن معاني الإيمان تحتاج إلى تجديد.. والأمة محتاجة إلى إحياء مراتب الصديقية والشهادة والصلاح.. وهي من الأهمية في المكان الكبير والتفتيش على الدقائق الإيمانية والقلبية من الإخلاص والزهد والمحبة والتسليم والرضا من الخير والأهمية في ذروة سامية.

وبقدر ما يوجد في الأمة الإسلامية صدّيقون وشهداء وصالحون تكون القدوة موجودة في حاضر الأمة.

✍ ولطالما علت أصوات المخلصين الذين يريدون الخير لأمتهم: عندنا نقص وجفاف روحي... عندنا نقص تربوي... وسيبقى هذا الكلام مستمرًّا حتى توجد كوادر عريضة قد تحققت بمعاني الربانية.

✍ التزكية هي ربع الرسالة المحمدية ومطلب عظيم أقسم الله عليه أحد عشر قسمًا متتالية ما أتت إلا في موضع واحد من كتابه الكريم في سورة الشمس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾.

إن الذي نال قسطًا من التزكية من مدرسة التهجد والصيام والذكر والإخلاص هو الذي يؤثر في الأجيال التي من بعده إلى ما شاء الله... والمتخلف عنها يابس قاس، تقسو قلوب الناظرين إليه.

❑ قال بشر بن الحارث الحافي: «بحسبك أن قومًا موتى تحيى القلوب بذكرهم، وأن قومًا أحياء تموت القلوب برؤيتهم».

(١) المصدر السابق ص(٢١).

✍ إن إحياء الإخلاص والإحسان وفقه الباطن من أكبر واجبات ومهمات هذا العصر وفريضة الداعي.

✍ ولكن ليست هي نهاية الشوط فالأمر ليس مجرد سبحات روحية وإشراقات، مهما يكن عمق هذه السبحات، ووضاءة تلك الإشراقات.. إنه جهد وجهاد، وصراع حاد مع الباطل، يهدم الباطل ويشيد الحق.

ولا تغيّر التربية الروحية وحدها من واقع الأمة الهابط إلى الحضيض.

حقًّا إنها تنقذ أفرادًا من الضياع القاتل، وتبني لهم سياجًا يحميهم من المهلكات، ولكنها لا تنقذ الأمة من الضياع؛ لأنها لا تدفع بجنود إلى حلبة الصراع، ولا تشارك في التدافع الذي قال اللَّه إنه هو الأداة الربانية لحفظ الأرض من الفساد ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥١].

٣ـ الشحن العاطفي:

مطلوب أن يتحمّس الناس لما يؤمنون به ولا يكونوا كالخُشب المسنّدة، لا تتحرك ولا تحدث حركة، فالدعوة لا تنتشر بأمثال هؤلاء، ولو كانوا هم أنفسهم مستجيبين وملتزمين، ولكنها بمفردها لا تؤدي إلى شيء. ولكن الحماسة كثيرًا ما تكون على حساب الوعي، وعلى حساب العلم الصحيح، وعلى حساب الخبرة فتفقد كثيرًا من مزاياها وتنشأ عنها أضرارًا كثيرة.

أما حين تكون الحماسة مع العلم والخبرة والوعي فللَّه ما أحلاها حين يغرّد الإنسان ويحدو!

لإسلامي ولو حتى ... إلى الجدران شدّوني
لإسلامي ولو حتى ... إلى النيران زفّوني
لإسلامي لإسلامي ... ولو في السوق باعوني
وإسلامي له عرقي ... له نبضي وتكويني
ثارات لإسلامي ... تعايشني تغذيني
تبث النور في روحي ... وتنبض في شرايني

٤ ـ التوعية والبصيرة:

البصيرة من ألزم اللوازم للقاعدة الصلبة وهي ضرورة لا غنى عنها. قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالغبش الذي أحاط بالإسلام وحقائقه في نفوس الناس غبش كثيف شامل، يحتاج إلى توعية شاملة بحقائق الإسلام ومفاهيمه بدءًا بلا إله إلا اللّه ونواقضها، ومفهوم العبادة، والقضاء والقدر، والدنيا والآخرة، ومفهوم عمارة الأرض، ومفهوم الجهاد.

والبصيرة مطلوبة لمعرفة واقع الأمة والأسباب التي أدّت إليه، فبغيرها لا تستطيع وضع المنهج المناسب للدعوة، وخطورة الانحراف لا يقدرها حق قدرها كثيرون.

✍ والتوعية مطلوبة لمعرفة مكائد العدو ومخططاتهم للقضاء على الإسلام، ووسائلهم في ذلك، والجهل بمخططات الأعداء ربما تستدرج بسببه جماعات في مواقف لا تخدم الدعوة مطلقًا، هؤلاء يكيدون ويمكرون بالإسلام مكر الليل والنهار يتابعون كل ما يدور في العالم

الإسلامي من أفكار وحركات، ويخططون على علم.

✍ وهذه البصيرة تكتسب بالتعلم والتعرف على السنن الربانية تارة، وتدبر التاريخ تارة، وبالخبرة تارة، وبالتربية تارة، وبالمشاورة التي يتم فيها تمحيص الآراء، وبيان وجهات النظر.

✍ ولكن التوعية الفكرية وحدها لا تؤدي إلى شيء حقيقي ما لم تكن زادًا لعقيدة صحيحة وحركة واعية، تزيدها المعرفة وعيًا وتبصّرها بمزالق الطريق، أما حين تتحول إلى ثقافة ـ مجرد ثقافة ـ فهي ترف عقلي لا يغيّر واقع النفوس.

٥ـ التربية الجهادية:

النفوس الرخوة التي لا تقدر على تكاليف الجهاد لا تصلح لحمل الدعوة، ولا للتحرك في وسط الأشواك، وفي مواجهة الوحوش الضارية التي تفتح أفواهها وتمدّ مخالبها لتنهش من تطوله من جنود الدعوة، وتفتك به بعد أن تذيقه العذاب الأليم.

ولكن التربية الجهادية ـ وحدها ـ لا تكفي لإقامة دعوة، بل لا تكفي حتى لحماية الدعوة من الأعداء، بل كثيرًا ما تكون سببًا في ضراوة الضرب من قبل الأعداء حين تنقصها الخبرة السياسية والخبرة الحركية، أو العلم، أو حين تبتعد عن العلماء العاملين وتسفّه آراءهم، وتتهمهم بأنهم لا يحيطون علمًا بالواقع أو ينقصهم الإحاطة «بفقه الواقع» هذه العبارات الرنانة المطاطة التي أقصت الشباب عن العلماء ودورهم الريادي حتى وقعت المصائب والطّوامّ الجسام التي منيت بها الدعوات في واقعنا.

كيف ينصر اللّه عز وجل شبابًا أكلوا لحوم علماء السُّنّة، وخاضوا

في أعراضهم.. وسخروا منهم بأن فقههم فقه دورات المياه حتى أصيبت الدعوات في مقتل.

✍ واشتطت فصائل فدخلت في معارك دموية مع الناس والسلطات، وكان لهذا أسوأ الأثر على العمل الإسلامي كله، ففضلاً عن النفور العام عند الناس من هذه الأعمال التي لا سند لها من شرع اللَّه، وما أقرّها عالم جهبذ رباني، فقد وجدت وسائل الأعلام المتربصة بالإسلام فرصة مواتية لتلوين الساحة كلها بلون الدم المراق، ووصمت كل عمل إسلامي أيًّا كان نوعه بأنه عمل إرهابي ينبغي أن يحارب وتجفف منابعه! وما كانت وسائل الإعلام العالمية في حاجة إلى مَن ينبهها أو يحفزها إلى انتهاز الفرصة فاستغلت هذا بأقصى حدود الاستغلال.

وهذا كله نتيجة حتمية لنقص العلم الشرعي الذي يُشكل الضوابط الضرورية للفكر وللسلوك، وأيضًا البعد عن العلماء.

✍ وما أصيبت الدعوات في مقتل إلاَّ بسبب مثل هذه العجلة، وسبب آخر يوازيه هو تغليب العمل السياسي والاشتغال بالقضايا الوطنية والاجتماعية قبل التربية على العقيدة الصحيحة.. فاستهلكت طاقات الشباب في قضايا لا طائل منها.. قبل أن يتربوا التربية الإيمانية الكافية ليكونوا أصلب عودًا، وأكثر دراية، وأطول نفسًا وأقل تعجلاً حتى لا ينساقوا وراء عواطفهم فقط، ويظنوا أن أهدافهم سهلة المنال قريبة التحصيل.

* تصحيح المسار واجب على كل حال:

هام هام: ﴿ادخلوا في السلم كافة﴾:

✍ إن مجموع الأمراض التي أصابت الأمة وحوّلتها إلى غثاء كغثاء السيل، ثم جلبت لها الأعداء يتداعون عليها كما تتداعى الأكلة على قصعتها أخطر من أن تعالج علاجًا سطحيًّا، بالوعظ أو التوجيه الروحي، أو الشحن العاطفي، أو التوعية الفكرية، أو التربية الجهادية، إذا استعملت أي واحدة من هؤلاء بمفردها على أساس أنها العلاج الوحيد السريع الذي ينقذ الأمة من واقعها وينقلها من حال إلى حال لا بد من الشمولية والدخول في «السلم كافة».

ويُرجى من الذين تعجّلوا في شتى الاتجاهات أن يراجعوا مسيرتهم، ويصحّحوا ما وقعوا فيه من أخطاء، ويبدءوا من جديد على هدي من المنهج النبوي السديد.

وأي بناء لا يكون على أساس من عقيدة سلفية فانفض يدك منه.

* كلنا على ثغر من ثغور الإسلام فليخش أحدنا أن يُؤتى الإسلام من قبله:

إن دولة الخلافة الفتيّة التي هي على منهاج النبوة والتي نأمل أن تقام على أرض الإسلام تحتاج إلى كوادر على مستوى فائق وتربيتها على أعلى ما يتاح لنا من مستويات التربية، وتنقيتها من الشوائب بأقصى ما يتاح لنا من وسائل التنقية.. هذه الكوادر تشمل كل مجالات الحياة فالتحديات التي ستواجه هذه الدولة تفوق الخيال، وتحتاج إلى رجال ربُّوا

على منهاج النبوة ووعوا المراد منهم جيداً.

❑ وسنضرب أمثلة:

✍ نحتاج إلى كوادر تحمل العلوم الشرعية وتعيها جيداً وتستوعبها جيداً، تجيد تدريسها جيداً... تحمل الفقه المقارن بين عيونها... تبلغ درجة الاجتهاد في المذهب لتولي مناصب القضاء الشرعي في طول البلاد وعرضها وهي غير متوفرة... فالناس لا يصبرون على الوعظ فكيف على التخصص والمثابرة على العلوم الشرعية دراسة وتدريساً؟

✍ نحتاج إلى كوادر طبية فقد قال الشافعي: «إنما ضيّع المسلمون ثلث العلم بتضييعهم للطب وتركه لليهود والنصارى».

نحتاج إلى مهندسين في كل فروع الهندسة، نحتاج إلى عسكريين وقادة في أركان الحرب والتخطيط، نحتاج إلى اقتصاديين يديرون حركة الاقتصاد الإسلامي بدلاً من هذا الاقتصاد الربوي، نحتاج إلى أعلى التخصصات في نظم الإدارة والتخطيط.. وإلا فكيف تقوم الدنيا؟.

إن في كل مِنّا طاقات وطاقات نريد أن نوظفها لإحياء المجتمع الإسلامي في الواقع وشموله لكل جوانب الحياة.. من الناس من يبزّ في ميدان التجارة ولا يفيد في مجال العلوم الشرعية، ومن الناس من يجيد الوعظ ولا يجيد إلقاء الدرس التخصصي.. هل نريد من الناس كلهم أن يكون كل منهم كالشيخ الألباني أو الشيخ ابن باز ـ رحمهما اللّه ـ ما كان هذا ولا يكون..

✍ نريد كوادر تقوم بإنشاء الصحف الإسلامية والمجلات الإسلامية، وينشئون الإذاعات الإسلامية. نريد كوادر في الترجمة تنقل

لنا أحدث ما عند غيرنا من علوم.. وتنقل لهم ديننا المصفى.

✍ نريد من ينذرون أنفسهم للعناية بالبيت المسلم والأسرة المسلمة ويحتضنون النشء المسلم في محاضن تبتعد به عن هجير دنيانا الكالح..

✍ نريد كوادر تعنى بالجانب الاعتقادي يعلّمونه للأمة حتى تعلم كل الكوادر عقيدة أهل السنة والجماعة كل كادر بقدره.. فالعامي يحتاج إلى مجمل الاعتقاد، والمتخصص الذي يحارب أهل البدع ويناظرهم ويجادلهم يحتاج إلى مفصل اعتقاد أهل السنة.

* العمل الجماعي ضرورة لإعادة مجد الأمة:

سَمّوه ما تسمون: التعاون على البرّ والتقوى.. العمل الجماعي.. لا بد من الانخلاع من الفردية.. والانضواء تحت عمل منظم.. والتعاون على البر والتقوى.. إن من يكيدون للإسلام ليل نهار مؤسسات وتنظيمات غاية في الدقة والتخطيط فلماذا لا ننخلع عن الفردية، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي...﴾ [يوسف: ١٠٥]. وهذا من أثمن النصوص في التعاون على البر والتقوى.

هناك من «آثر العمل الفردي، وظهرت التجمعات حول أشخاص الدعاة دون وجود أي نظام للعمل على استكمال العمل الإسلامي والقيام بفروض الكفايات إلا نظام الشيخ والتلميذ، وما قد يقتنع به البعض من أعمال الخير.

ولا يخفى أن هذه النظرة تفقد الرؤية الصحيحة لمستقبل العالم الإسلامي ولا تحدد خطوات محددة لتطور العمل والقيام بفروض الكفايات الضائعة، كما أن هذه التجمعات إن قويت فهي جماعة دون

مسمى، أو أن مسمّاها هو اللاجماعة، أو هم اسم قائدها ومعلمها وآراؤه، وليس منهجًا متكاملاً قابلاً للاستمرار والبقاء بعد غياب القائد بموت أو عجز أو غيره.

وهذا ما لا بد للصحوة أن تنتبه له، فعمر الأمم والدعوات ليس بعمر الأشخاص، بل عمرها يقاس بالأجيال وتغيّرات الشعوب ربما يحتاج إلى عقود أو قرون، فهل نعدّ دعوتنا لتحمل هذه الرحلة الشاقة أم هي مرتبطة بأشخاصنا تذهب بذهابها وتمرض بمرضها وتموت بموتها؟ لا شك أن البقاء بإذن اللَّه هو للنظام والمنهج والجماعة.

✍ والبعض من أصحاب الاتجاهات الإسلامية يعتبر أن جماعته هي المصيبة دائمًا في كل خلاف، وأن كل مَن خالفها فعليه أن يترك جماعته لينضم إليهم، وهي نظرة ضيّقة فيها من الغلو وعدم تقدير واقع أيّ من الجماعات والاتجاهات الموجودة على الساحة»[1].

✍ واختلاف التنوع ـ الموجود في ساحة العمل ـ من مقتضيات الرحمة ومظاهرها ولا بد من استثماره لتحقيق التكامل بين المسلمين، ولا بد من أجل ذلك أن نتجنب ترك الواجبات العينية الأخرى، وتحقير العلوم والأعمال الصالحة التي تقوم بها الاتجاهات الإسلامية الأخرى، والتعصب على اسم أو عمل معين، بل لا بد أن يكون الولاء على المنهج الإسلامي الصافي النقيّ منهج أهل السنة بشموله وتوازنه: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ [المائدة: ٥٥].

(١) «فقه الخلاف بين المسلمين» للشيخ ياسر برهامي ص(٩٠) ـ دار العقيدة للتراث.

أما اختلاف التضاد غير السائغ، فيجب علاجه بمحاربة البدع والضلالات والأقوال الباطلة، والاجتماع على منهج أهل السنة والجماعة، والعمل على نشره بتفاصيله وهذا يقتضي تحقيق هذا المنهج وتحديده تحديداً مفصلاً في قضايا العقيدة والعمل والدعوة ومناهج التغيير وغير ذلك، ولا شك أن أفضل المؤهلين لتحقيق هذه المعالجة المطلوبة هم الجماعات الملتزمة بمنهج أهل السنة على طريقة السلف.

وهي تحتاج إلى توحيد جهودها وتقارب صفوفها، وبذل الوسع في نشر منهجها. ووحدتها واجتماعها فريضة منشودة، فإن تعدد القيادة في مكان واحد في زمان واحد من الاختلاف المذموم الذي يجرّ الصراع على الرياسة وما معه من مفاسد ومحن، نسأل اللَّه العافية منها، فلا بد لهذه الاتجاهات أن تضع في أولويات عملها تحقيق التواصل فيما بينها للوصول إلى هذه الغاية المقصودة، ووجود منهج أهل السنة في جماعة واحدة قوية كفيل بإذهاب الدّخن من الاتجاهات الأخرى على الأقلّ إن لم يوحّد صفوف الأمة كلها خلف قيادة أهل العلم من أهل السنة وتحت لوائها: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وليست هذه بأحلام وردية غير قابلة للتطبيق، بل مع التجرد والإخلاص والعمل المستمر نرجوا اللَّه أن يمن على هذه الأمة بوحدتها ورشدها وصلاحها»[1].

(١) «فقه الخلاف بين المسلمين» لياسر برهامي ص(٩١ - ٩٢).

* الوحدة الإسلامية أمل القلوب المسلمة الصادقة:

نريد وحدة صادقة تقوم على أصول قوّية ثابتة:

❑ **الأصل الأول: الانتماء للإسلام دون سواه:** فأفضل الناس هم الذين يعلنون انتسابهم إلى الإسلام ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: ٣٣].

❑ **الأصل الثاني: توحيد مصدر الهداية، والرجوع إلى النبع الصافي: الكتاب والسنة..** «إذا جاء نهر اللَّه بطل نهر معقل».

ونشرب إن وردنا الماء عذبًا ... ويشرب غيرنا كدرًا وطينا

● وللَّه كم أجملها من عبارة نطق بها رسولنا ﷺ:

«والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»[1].

❑ **الأصل الثالث: وحدة العقيدة:** عقيدة أهل السنة والجماعة عقيدة السلف الصافية المنصوص عليها في الكتاب والسنة، والتي يمكن التدليل على كل أصل من أصولها، أو جزئية من جزئياتها.

❑ **الأصل الرابع: جعل الكتاب والسنة محور الدراسة ومصدر التشريع.**

❑ **الأصل الخامس: إقامة دولة الإسلام وإرجاع دولة الخلافة الراشدة:** «لا يمكن أن تنتهي فرقة المسلمين السياسية إلا بإقامة دولة إسلامية راشدة تقيم فينا دين اللَّه وشرعه، وتحكمنا بالإسلام، وتُسمع العالم صوت اللَّه، وتقوم بواجب البلاغ الذي كُلِّفنا به، وتحمي حمى الإسلام، وتحرس هذا الدين، كما تحمي ديار المسلمين، وتحفظ حرمات المسلمين، وترد كيد

(١) «مسند أحمد» عن عبد اللَّه بن ثابت ـ رضي اللَّه عنه ـ.

الكائدين. نريد دولة الإسلام كي نتوحد في ظلها لنعود مرة أخرى دولة واحدة وأمة واحدة تختفي في ظلها النعرات الجاهلية، والعصبيات المقيتة.

إن الطريق إلى إقامة دولة الإسلام لا يتحقق بمجرد الأماني، الطريق ليس مفروشًا بالورود والرياحين، بل تعترضها عقبات جسام، ولكن لا بد من بذل الغالي والنفيس من أوقات المخلصين الصادقين وأموالهم وأنفسهم، حتى لو شردوا وعذبوا وقُتلوا.

* حاجة الدعاة الماسة إلى التجرد لله:

«من مداخل الشيطان إلى نفوس ذوي المواهب خاصة، فتنة «الذات»، فتنة «الأنا». حين يكون الإنسان جنديًا في الصف يكون أبعد عن كيد الشيطان منه حين يبدأ يبرز بمواهبه، وتكون له مكانة خاصة، فهنا يجد الشيطان فرصة أكبر للغواية! وكلما برز الإنسان كانت محاولة الشيطان لإغوائه أشد! وتكون الفتنة في عنفوانها حين يتهيأ الإنسان لمركز من المراكز القيادية، أو لمركز الزعامة ذاته.. هنا يختلط الأمر في كثير من النفوس إذا لم تكن قد تربّت على التجرد للّه، بين الدعوة وبين «الأنا» القائمة بالدعوة.

أنا ممثل الدعوة! أنا الذي تتوفر فيّ الصفات المطلوبة للقيادة! إذن فما يصيب شخصي يصيب الدعوة! وما يريحني وترتاح إليه نفسي هو صالح الدعوة! هكذا يتدسس الشيطان إلى النفوس فيجعل ذواتنا مركز اهتمامنا ومركز تحركنا.. إن فلانًا يقف في طريقي.. يناوئني أو يعارضني، أو لا ترتاح إليه نفسي. إذن فوجوده ليس في صالح الدعوة بل قد يكون خطرًا على الدعوة؟ لا بد من وقفه عند حدّه، لا بد من تحجيمه إن لم يكن الأفضل فصله من الجماعة لتسير الدعوة في طريقها

المستقيم أي الطريق الذي يكون فيه عزي وجاهي وسلطاني!!

آفة من أشد آفات العمل الإسلامي.. آفة أدت في الجهاد الأفغاني إلى إهدار دم مليون ونصف مليون شهيد والعبث بمقدرات أمة، وضياع أمل تعلّق به المسلمون في كل الأرض.. وما زالت تتسبب فيما يصيب بعض الجماعات من تشقق وتحزب وتشرذم وعداوة وخصام، وإنْ تَلَفّع الخصام بخلاف على المبادئ أو الخطط أو الأساليب.

حين نكون متجردين للّه نحتمل النقد سواء كان لأشخاصنا أو لأفكارنا أو لتصرفاتنا.

ترى كم أميرًا من أمراء الجماعات الإسلامية يطيق أن يوجّه إليه النقد من أحد أتباعه؟ وكم أميرًا يرجع إلى الحق حين يكون الذي وجهه إليه أخ من إخوانه في اللّه فضلاً عن جندي من جنوده؟

✍ حين نكون متجردين للّه لا تكون ذواتنا محور اهتمامنا ولا محور تحركنا، ولا نحس بالغيرة من بروز غيرنا حين يبرز عن جدارة ولا بالتفاف الناس حوله وإعجابهم به، ولا يدفعنا ذلك إلى محاولة للانتقاص منه أمام أتباعنا لكي لا يتحول «ولاؤهم» عنا إلى ذلك «المنافس» الذي التف حوله الناس!!

✍ وحين نكون متجردين للّه لا يكون «الولاء» لأشخاصنا أو لجماعتنا، الأولى أن نقول «حزبنا» هو محك الحكم على صلاحية الآخرين وجدارتهم بل يكون المحك هو المحك الرباني.

وحين لا نكون متجردين للّه بالقدر الكافي يحدث كثير مما يحدث في واقعنا المعاصر»[1].

(١) «كيف ندعوا الناس» لمحمد قطب ص(١٣٥ ـ ١٣٧) ملخصًا.

❑ للَّه در إبراهيم بن أدهم حين يقول: «ما صدق اللَّه عبدٌ أحب الشهرة»[١].

❑ وعبد اللَّه بن المبارك شيخ الإسلام القائل: قال لي سفيان: إياك والشهرة، فما أتيت أحدًا إلا وقد نهاني عن الشهرة[٢].

❑ وسفيان الثوري القائل: «قلّ عالم تكبر حلقة درسه، إلا ويدخله العجب.

✍ نعم نعم.. كم من الأهواء تختفي في مسارب النفس وتكوّن لها أعشاشًا وأوكارًا.

✍ أشد الزهد: الزهد في النفس.

❑ قال ذو النون: حقيقة الزهد: الزهد في النفس[٣].

❑ قال الحسن: الزاهد: الذي إذا رأى أحدًا، قال: هذا أفضل مني.

❑ وقال سفيان الثوري: «الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، وأول ذلك زهدك في نفسك»[٤].

✍ كم من الدعاة والمشاهير يحتاجون إلى التطامن والتواضع والمسكنة وترك الأبهة والجاه.. واللَّه إن الكثيرين والكثيرين قد وقعوا في ترف وأبهة يعجز أبناء الدنيا عن أن يجاروهم فيه.. وكم من كبائر القلوب: من عُجْبٍ وكِبْرٍ تلطخوا بها لا تجدها عند عوام الناس..

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٣٩٣).
(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٢٣).
(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ١٢).
(٤) «السير» (٧/ ٢٦٨)، و«الحلية» (٧/ ٦٩).

فاللَّهم استرنا بفضلك واجعلنا من الصالحين.

✍ لقد تشرذم العمل الإسلامي لأسباب متعددة.. منها غياب قيادة كبيرة تضم العمل الإسلامي وتوحده، أو في القليل تقرّب بين مختلف اتجاهاته، ووجود قيادات صغيرة، كل منها يعتد بنفسه ورأيه، ويرى أنه وحده على صواب والكل غيره مخطئون..

وجدنا «الأنا» تسري مسرى النار في الهشيم.. تنتقل من الأفراد إلى الجماعات..

✍ واللَّه، لقد سمعت بأذني من أكبر قيادة في جماعة حماسية من يقول: ابن باز وابن عثيمين ليسا بعالمين ولا يصلحا للإفتاء، لمجرد أنهما يخالفانه في تسرعه وتعجله الذي أصاب الدعوة في مقتل.. فكيف يرجى الخير مع وجود هذه الزعامات؟

✍ إن كثيرًا من الشباب القائم بالدعوة لم ينشأ في داخل تجمع يربي فيه روح التجرد والمثابرة على طلب العلم والحق، إنما نشأ على ترابط فكري هش، يسهل فسخه عند وقوع أي خلاف في التفسير أو التأويل، أو الفهم، فسرعان ما تنقسم الجماعات، وينقلب بعضها على بعض.. فالنقص في العلم الشرعي الذي يشكّل الضوابط الضرورية للفكر والسلوك أصاب الدعوة في سويداء قلبها.

* حاجة الأمة الملحة إلى الالتفاف حول العلماء الربانيين:

لا بد من التفاف الناس وجمعهم حول علمائهم الربانيين الصادقين المخلصين الورعين [«فهم في الحقيقة أولو الأمر منهم؛ لأنهم هم الذين يمكنهم أن يقودوهم بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ.

واجتماع الناس عليهم من أسباب قوة الصحوة وتأثيرها في المجتمعات المسلمة الجريحة بجراح الكفار والمنافقين، ثم هؤلاء العلماء عليهم أن يختاروا من بينهم أمثل من يقود المسلمين في ملماتهم ومهماتهم، ولا سبيل إلى أن يصبح أهل الحل والعقد الحقيقيون الذين هم أهل العلم من أهل السنة والجماعة أهل قوة وتأثير إلا بجمع الناس عليهم وردّ أمرهم إليهم، فإن واجب المسلمين حال غياب الإمام أن يكون العلماء هم ولاة الأمور.

❑ قال الجويني ـ رحمه اللَّه ـ: «قال العلماء: لو خلى الزمان عن السلطان فحق على قطّان كل بلدة وسكان كل بلدة أن يقدّموا من ذوي الأحلام والنهى وذوي العقول والحجج من يلتزمون امتثال إشارته وأوامره وينتهون عن مناهيه وزواجره»[1].

❑ وقال أيضًا: «ثم كل أمر يتعاطاه الإمام في الأموال المفروضة إلى الأئمة، فإذا أشغر الزمان عن الإمام وخلى عن سلطان ذي نجدة واستقلال وكفاية ودراية، فالأمور موكولة إلى العلماء، وحق على الخلائق أن يرجعوا إلى علمائهم ويصدروا في جميع قضايا الولايات عن رأيهم، فإن فعلوا ذلك فقد هدوا إلى سواء السبيل وصار علماء البلاد ولاة العباد، فإن عسر جمعهم على واحد استبد أهل كل صقع وناحية باتباع عالِمهم، وإن كثر العلماء في الناحية فالمتّبَع أعلمهم، وإن فُرِض استواؤهم وهو فرض نادر لا يكاد يقع، فإن وقع، فإصدار الرأي عن جميعهم مع تناقض المطالب والمذاهب محال، فالوجه أن يتفقوا على

(١) «غياث الأمم» للجويني ص(٢٨٠).

تقديم واحد منهم»[١] [٢] .

□ قال عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّـه عنه ـ: «من سوّده قومه على الفقه كـان حياة له ولهم، ومن سوده قـومه على غير فقه كـان هلاكًا له ولهم».

إن العلماء الربانيين هم ورثة الأنبياء عـلمًا، وخلقًا رفيعًا، وشفافية روحية لا تجارى، وفهمًا لواقع عصرهم وأوضاعه.

هم أولو الحكمة والشهادة العادلة على الناس وعلى الواقع، قادرون على الـعطاء، سائرون عـلى قدم الأنبيـاء، جأَارون بالتضـرع والدعاء، و«الأصل أن عامة المسـلمين ينتظرون من عـلمائهم كلمة الـفصل، ومن خلال الـعلمـاء يثقـون أوْ لا يثقـون، والأصل أنه فـي قضايـا الإسلام والمسلمين أن يكون العلماء هم القادة وهم السادة وإليهم مرجع الناس في كل ما حزبهم»[٣] .

العلـماء العامـلون الصادقـون الربانيـون الزهاد هم حـاجة الأمة، وحاجة الناس إليـهم أشد من حاجتهم إلى الهـواء والطعام والشراب.. إنما العيش معهم، فهم الذين يـحسنون بناء النفوس وبناء الأمم، وهؤلاء هم الذين يجبرون ضعف المسلمين، ويقيلون الأمة من عثرتها، ويعيدون لها عزتها، وعلى أيـديهم يشرق على المسلمين فجرهم ويمـنّ اللَّه عليهم فيجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين.

---

(١) «غياث الأمم» ص(٢٨٢).

(٢) «فقه الخلاف بين المسلمين» ص(٥٥ ـ ٥٦).

(٣) «إحياء الربانية» لسعيد حوى ص(٤٨ ـ ٤٩).

يا بن الإســـلام
أنت يوسف هذه الأحلام

يا بن الإسلام
أنت يوسف هذه الأحلام

أخي:

صباحُكَ للروح كالبَلْسَمِ ... بهيج الضحى رائق المبسمِ
يحرك في النفس وجدانها ... ويطلقها من إسارِ الدمِ
ويرفعها من حضيض الترا ... ب إلى الأفق الأرحب الأكرمِ
ويغمرها بحنان السما ... ء ويمنحها هيبة المسلمِ
فتشرق في القلب أنواره ... وينبض بالحمد للمنعمِ
ويعبق فيه أريج الهدى ... زكيًّا يطولُ على الموسمِ
أرقّ وأندى من الياسمي ... ـن وأبهى جمالاً من البرعمِ
ونورك يا فجر إسلا ... منا سناه ينير القلوب العمي
ويروي غليل العطاش الذين ... يرون السراب كسيلٍ طمي

* * *

أخي:

أنت أيها المسلم نبع في الأرض لمعاني النور بإزاء الشمس نبع النور في السماء، كأنما خرجت نفسك من صيغة كصيغة الدرّة في محارتها، أو تركيب كتركيب الماس في منجمه، أو صفة كصفة الذهب في عرقه.

للّه درّك وما أودع الإسلام فيك من خصال، ففي موقف أنت جبل صامد يشمخ، وفي آخر أنت ماء عذب يجري.

أخي:

أنت كنز الفضائل ما من فضيلة فيك إلا ويطبع الإسلام عليها صورة الجنة، ولارذيلة تتحاشاها إلا والإسلام يضع عليها صورة النار التي وقودها الناس والحجارة.

كان التاريخ واقفًا لا يتزحزح، ضيّقًا لا يتسع، جامدًا لا ينمو حتى جاء المسلم أخو الشمس يطلع بنوره كل يوم على الدنيا.

أخي:

أنا على يقين دائمًا أن المسلم معه الغد وآتيه، وإن أدبر عنه اليوم وذاهبه، إن المسلم ليس رجل الأرض في الأرض، ولكنه رجل السماء في الأرض، إنه يتسع في الزمان والمكان من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه، وكأنما كانت شمس فجره الآتي الذي سينتصر فيه، قبل أن تشرق على الدنيا مشرقة في قلبه.

أخي:

أنت للدنيا كالمنارة على الساحل تهدي الحائرين وترشد الأدلاّء.

أنت أولى الناس بقول القائل:

وحقيقتي نورٌ فما لي سابحًا ... في لجة الظلمات والأشجانِ

أنا أمّة فيما أريد لأمتي ... وولايتي دنيا من الأجيال

فاخلق لنفسك نشوة ... في المجد ترهب في العرين أسودا

واجعل نشيدك قول ربك لا تخف ... حتى يهاب البرق منك رعودا[1]

(١) إقبال الشاعر الثائر ص (٦٩) لنجيب الكيلاني.

❑ يا بن الإسلام:

إن هذه الشعلة من طين، عندما تتحلى بالتوحيد والإيمان واليقين، تكتسي بجناحي الروح الأمين، وتطير بهما في العالمين.

كن عبدًا لربك تكن حرًّا تقول لكل قيود الأرض: لا، لا يا قيود الأرض، فإنه لا تغني السيوف الصارمة، والعقول الراجحة، في الرقّ والعبودية فتيلاً، ولا تتحطّم سلاسل العبودية وأصفاد الذل والصغار إلا بطعم الإيمان وذوق التوحيد واليقين.

❑ أخي:

إن البصيرة الإبراهيمية والعزة بالإسلام والتوحيد لا تتأتّى بسهولة، ولا توهب مجانًا، فكم من الأهواء تختفي في مسارب النفس وتكوّن لها أعشاشًا وأوكارًا.

* يا بن الإسلام ويا يوسف الأحلام:

كن نغمة الأخوة الحانية، ولسان الحبّ البليغ.. انطلق للدعوة إلى اللّه عز وجل.. لا تحدّك حدود، ولا تغلّك قيود، رفرف بجناحيك يا طائر الحرم، وقبل أن تحلّق في الفضاء، انفض عنك غبار اللون والنسل والوطن والتراب، شقّ لك الطريق في اليباب القفار، وحطّم الجبال بسيلك العرم وتيارك، وإن اعترضتك حديقة في الطريق فناغمها بجد ولك الجميل المنساب، الذي له خرير يُسكر النفوس ويبهر الألباب.

✍ علّم البلابل دروس التغريد ولحن التوحيد، وانفخ في الطيور روح الخفة، وافتح أكمام الزهور والرياحين، فأنت نسيم سحر العالم، ونفحة روضته الندية.

فـدت نـفـسي ومـا ملكت يميني فـوارس صَـدَّقـتْ فـيهـم ظـنـوني
فـــوارس لا يمـــلّـــون المـــنـايـا إذا دارت رحى الحـــرب الـزّبـون[1]

❑ يا بن الإسلام:

أحب شـيء إلى نفسـي أعزّه وجودًا وأبعـده منالاً.. أبحـث عن عمـلاق من الرجال وبـطل من الأبطـال، يملأ عينـي برجولتـه، ويروّح نفسي.. مسلم يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحـية، وبين عُبّاد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص، وبين عُبّاد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقياته وإنسانيـته، وبين عُبّاد الشهوات والأهـواء والمنافع بتجرّده مـن الشهوات وتمرّده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه، يعيش برسالته ولرسالته.

إنك أيهـا المسلم فـي العالم وحـدك، وأما ما عداك سـراب خادع ودرهم زائف.

أنت نقطة دائرة الحق، وكل ما عداك سراب خادع ودرهم زائف.

أنت أنت لا تتغير ولا تتحول، وأما ما عداك فزبد يذهب جفاء.

أنت الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وما عداك شجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

بقاؤك كبقاء الشمس والكواكـب النيّرة، لأنك تحمل رسالة خالدة، وتحتضن أمانة خالدة، وتعيش لغـاية خالدة، أنت رمز لرسالات الأنبياء،

(١) لأبي الغول الطهموي. والحرب الزبون هي: التي تصدم الناس وتدمغهم.

وأذانك إعلان للحقيقة التي جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى اللَّه عليهم وسلم.

أنت رسالة اللَّه الأخيرة، فلا يعتريها النسخ والتبديل.

أنت موج من أمواج بحر الإسلام الخضم، يأتي موج ويذهب موج، وتترامى الأمواج في أحضان البحر وتتلاشى في وجوده، والبحر لا يتغيّر؛ فالبحر امتداد دائم، كبحر الحياة وبحر الوجود تتبدّل أمواجه ولا يتبدّل كيانه.

إن العالم تراث للمؤمن ، لا يشاركه فيه أحد، خُلق وسُخّر له.

على الأذان الصارخ والنداء العالي، الذي ارتفع من جبل «أبو قبيس» قبل ثلاثة عشر قرنًا، استيقظ هذا الكون بعد السبات العميق، وكان نفخة صور للإنسانية الميتة والعالم المحتضر، وهو الكفيل الآن لإيقاظ الإنسانية وإحياء الضمير البشري.

إن المؤمن إذا نادى في الآفاق بأذانه، أشرق العالم واستيقظ الكون.

إن الفجر الذي سيهتز له هذا العالم المظلم ويُولي به ليل الإنسانية الحالك إنما ينشأ بأذان المؤمن.

إن المسلم حقيقة عالمية لا تنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيقة، بل تتخطى حدود المكان والزمان، وتفيض كالطبيعة البشرية، وكالإنسانية العامة، في مساحة زمانية شاسعة، كمساحة التاريخ الإسلامي، وفي مساحة مكانية واسعة كمساحة العالم الإسلامي.

* * *

الصين لنا والعرب لنا ... والهند لنا والكلّ لنا
أضحى الإسلام لنا ديناً ... وجميع الكون لنا وطنا
توحيد اللّه لنا نور ... أعددنا الروح له سكنا
الكون يزول ولا تُمْحَى ... في الدهر صحائف سؤددنا
بُنيت في الأرض معابدنا ... والبيت الأول كعبتنا
هو أول بيت نحفظه ... بحياة الروح ويحفظنا
في ظلّ الدين تَرَبَّيْنا ... وبنينا العزّ لدولتنا
عَلَمُ الإسلام على الأيام ... شعار المجد لملّتنا
وأذان المسلم كان له ... في الغرب صدى من همّتنا
قولوا لسماء الكون ... لقد طاولنا النجم برفعتنا
يا دهر أمَا جَرّبت على ... نيران الشدّة عزمتنا
طوفان الباطل لم يُغرق ... في الخوف سفينة قوتنا
يا ظل حدائق أندلس ... أنسيت مغاني عشرتنا
وعلى أغصانك أوكار ... عمرت بطلائع نشأتنا
يا دجلة هل سجّلت على ... شطيك مآثر عزتنا
أمواجك تروي للدنيا ... وتعيد جوانب سيرتنا
يا أرض النور من الحرمين ... ويا ميلاد شريعتنا
روض الإسلام ودوحته ... في أرضك روّاها دمنا[1]

* * *

(١) لمحمد إقبال.

✍ إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود، ولا يعرف أفقه الثغور، ليس النيل والفرات، وسيحون وجيحون إلا أمواجًا صغيرة في بحره المتلاطم. عصوره عجيبة وأخباره غريبة، نسخ العهد القديم، وغيّر مجرى التاريخ. هو في كل عصر ساقي أهل الذوق، وفي كل مكان فارس ميدان الشوق، شرابه رحيق دائمًا، وسيفه ماض في كل معركة.

✍ إن المؤمن هو الميزان العادل، والقسطاس المستقيم، به يُعلم رضا اللَّه وسخطه، وبه يعرف الحسن من القبيح، فما راق في نظره فهو حسن، وما استقبحه فهو طائش، وفي عزائمه تتجلى الإرادة القوية، وهو الدين يسعى على قدميه، هو صاحب معان كثيرة، وشدو واحد، فهو كسورة الرحمن في القرآن، تتجدّد معانيه وتتكرر فيه آية ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه، ويكرر رسالة الأنبياء، ويقول لكل جيل ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

✍ هو كالصبح جديد وقديم، فهو في جدّته ليس أجدّ منه، وهو في قِدَمه ليس شيء أقدم منه؛ هو قديم لكنه يتجدّد به العالم، وتتجدّد به الكائنات، وتنتعش به القوى، وتستيقظ به الأجسام والقلوب، والعقول؛ ثم جديد بنفسه، تتجدّد قواه ويتجدّد نشاطه، وتتفتح قريحته مع العصور، علمه سيّار، وعقله مبتكر، ونفسه طموح، وهمّته وثّابة، وهو كالمطر كل قطرة غير الأولى، ولكنها قطرات، كلها تحيي الأرض، وكلها تنبت النبات، وكلها تسقي الزروع والأشجار، وكلها تفتح الأزهار، وكلها تكوّن الأنهار.

● قال رسول اللَّه ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر .....».

عجبًا لك أيها المسلم! تجلّت لك الآفاق، وغابت عنك نفسك؟ إلى متى تظل غافلاً جاهلاً؟ وتجلس ضائعًا عاطلاً، إن نورك الوهّاج أنار العالم القديم، ونسخ الليل البهيم، ولا تزال اليد البيضاء التي ورثتها عن موسى في كمّك، تتخطى حدود الآفاق الضيّقة، فأنت السابق لها والفائق عليها، هل تخاف الموت؟ لقد كان جديرًا بالموت أن يخافك، فأنت تكمن له وترصد به.

اعلم يقينًا، أن الكريم اذا وهب شيئًا، لا يسلبه ولا يشرده، وليس حتف ابن آدم في فراق الروح، إنما حتفه في ضعف الإيمان والحرمان من اليقين.

أخي:

افتح عينيك أيها الزهر النائم مثل النرجس الذي لا يطبق عينيه لحظه، ولا يعرف الكرى إليه سبيلاً، لقد أغار على وكرنا الأعداء، ونهبوا كل ما فيه من كنوز وخيرات، ألا يكفي هدير الحمام، وصفير الآذان وأنين القلوب والأرواح، وبكاء الثكالى واليتامى، وصراخ السبايا أن يوقظك، انتبه من هذا السبات العميق، الذي طال أمده واشتدت وطأته.

لقد بدأت الشمس رحلتها المباركة، وارتفع عمود الصباح المنير في بحر الظلمات، وحزمت القوافل في الجبال والصحاري أمتعتها، وضُرِب نفير الرحيل، فما لك أيتها العين الساهرة! التي خُلِقت لمراقبة الإنسانية، وحراسة الضعفاء تنامين؟

* * *

يا بن الإسلام:

لقد أصبح بحرك هادئًا ساكنًا كالصحراء، لقد فقد طبيعته، فلا مدّ فيه ولا جزر، عجبًا لهذا البحر الذي لا يهيج ولا يموج، وليس فيه تمساح طموح مغامر، ولا موج ثائر عارم!.

اقفز من حدودك الضيّقة الهادئة لتفيض على البراري والقفار والنجاد والأغوار.

بك قِوام العالم وبقاء الأمم فاشرب كأسًا فائضة من اليقين، وانهض من حضيض الظن والتخمين.

يا بن الإسلام:

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول، وسحروا النفوس، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرّة بالرقة والدلال، ومُرّة بالقيود والأغلال.

إن الذي عرف نفسه وعرف قيمته لا يليق به إلا عروش الملوك وأسرّة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قوام، ولا شرف ولا كرامة إلا بهذه المعرفة، فإذا ملكتها ملكت العالم، وإذا فقدتها، أصبحت من سقط المتاع.

يا يوسف هذه الأحلام:

إن كل ما في العالم من الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكية، راحل زائل، وغائب آفل، وأنت أيها المسلم، بطل المعركة، وكل ما حولك من سافلٍ وعالٍ، ورخيص وغال، من جنودك وأتباعك.

أخي:

يا وارث التوحيد يا أنا! هل أصبحت كسائر الناس لا تحمل روحًا ولا تجذب نفوسًا؟

إن السجدة التي كانت تهتز لها روح الأرض، طال عهد المحراب بها، واشتاق إليها المسجد كما تشتاق الأرض الجديبة الخاشعة إلى المطر؛ لم أسمع ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال بالأمس.

لم أر في محيطك أيها المسلم لؤلؤة الحياة، قد بحثت عنها موجة موجة، وتفقدتها صَدَفة صَدفة.

❑ أخي:

إذا رأيت النجوم شاحبة منكدرة تخفق، فاعلم أن الفجر قريب، ها هي الشمس قد ذرّ قرنها من الأفق، وولى الليل على أدباره. إن عاصفة الغرب على الإسلام قد أعادت المسلم إلى الإسلام، فإنما تتكون اللآلئ في البحر المتلاطم الهائج، لقد دب دبيب الحياة في المسلم، وجرى الدم في عروقه.

❑ يا يوسف هذه الأحلام..لله ما أحلى هذه القصيدة يشدو بها فمك الطاهر:

وأقول للجيل الجديد..
أقول للجيل المحصّن بالعقيدة والمتوّج بالصباحْ..
وأقول يا رمز الفلاح..
إنّا بلونا الليل والأشباه والموت المؤجّل والجراحْ..
وأقول يا جيل المصاحف..
يا خمير الأرض..يا طلق الولادةْ..
ها أنت كالينبوع تَدفقُ في صحارينا..
وتمنحنا الوثيقة والشهادة..

أنت الذي سيُبدِّل الأوزان والأحزان..
يزرعُ في العيون نخيلها..
فلكم تباطأ في الرحيل عن القرى عامُ الرمادةْ..
وأقول حيّ على الفلاح..
فإنّ فيك النبض يورق بين ترتيل الظهيرة والمساء..
وأقول يا جيل الفداءْ..
أكلت مواسمَنا الجنادبُ..
واستبدَّ بنا الحُواة..
وغادَرتْنا آخرُ السحبِ الحميمة في السماء..
أنت الذي تقتاتُ جمر المرحلةْ..
ها إن أحبار اليهود تجمّعوا..ها إنهم حشدوا لنا..
فاقرأ على تلك الرؤوس «الزلزلة»..
اقرأ علينا باسم ربك يا بلالْ..
الشمس في كبد السماءْ..
ونحن في وَقْدِ الظهيرة..
كم نتوق إلى الظلالْ..
اقرأ علينا «المؤمنون» وشدّ قوسك..
إن قوسك لا تطيش بها النبالْ..
كم ذا سألتَ فلم يجيبوا..
كم سألتَ فلم يجيبوا..
أنت وحدك من يُجيب عن السؤال..

يا أيها الجيل الجديدْ. . ويا سليل الطهر. . يا برد اليقين. .
كن باسم ربك قلعة للخائفين. . ومنهلاً للظامئين. .
كن جذورًا. . كن طيورًا. .
كُنْ كما شاءت لك «الأعراف» في الزمن العجين[1] . .
يا أيها الجيل الجديد. .
وقفتُ مندهشًا على عتبات خطوتك الجديدةْ. .
وقرأتُ نبضك وانطلقتُ بلا عِنانْ. .
من سورة «الإسراء» جئت. . ومن نقاء الفجر. .
والسبع المثاني. .
ورأيتَ من خلف الدخان وجوهَهم. .
وبلوت عربدة الدخانْ. .
وحملت جُرحَك والهجير. .
حملت جرحك والعبير. .
فما الذي حملته أغربة الزمان[2]!؟؟

✍ يا حُرّاس الدين وأمناء اللَّه في العالمين، يا من لو أقسمتم على اللَّه لأبركم، إذا تألّق نجمكم في آفاق السماء أفلت نجوم الآخرين، وطُوي بساطهم، لن تسعكم الصحراء والفيافي، فاضربوا خيمتكم في وجودكم، الذي يسع الآفاق، كونوا أسرع من العاصفة وأقوى من السيل، حتى تسرع ركائبكم في مضمار الحياة وتسبق الريح.

---

(١) العجين: المسن. . المخنث. . الأحمق.

(٢) قصيدة «جيل الصحوة» من ديوان «إنها الصحوة» لمحمود مفلح ص (٣٧ ـ ٣٩).

امتلكـوا ناصية الأيام، خذوا عنان الـتاريخ، وقودوا قافلة الـبشرية إلى الغاية المثلى.

من الذين أكرمهـم اللَّه بالسبق إلى قراءة القـرآن سواكم، من الذي دوّى أذانه في العـالمين غيركم هل العـلم إلا فتات مائدتكـم، وهل قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ إلا وصف حالكم؟!.

مرّ الإسلام على صحرائكم فأنبتت الأزهار والرياحين، صهيل خيل أبي سـليمان خـالد بن الـوليد، وسـيف صلاح الديـن، ونظرة الـزاهد الأواب بشر بـن الحارث، وذكر الفضـيل بن عيـاض، فكر ابن تيـمية، ودوي التكبير والصلوات، وزمزمة جَلَبة الحروب والفتوح بين الخافقين.

❑ أخي:

إني أرى في مـرآة المستقـبل عصرًا لا يزال فـي طيّات الغـيب، قد بدت تباشيره، وظهرت طلائعه لعيني، ولكنها لا تزال محجوبة عن أعين الناس، لو كُشف الـغطاء عن وجه هذا الفجر المرتقـب، لشقّ ذلك على أوروبا، وفقدت رشدها وجُنّ جنونها. هذا الفجر سيوقظ العقول، ويهزّ النفوس، ويزهر الآمال في الصدور، قد آن أن تشرق الأرض بنور ربها، ويعيش العالم من جديد.

❑ يا بن الإسلام:

أنت البغية المنشودة، وبحرك زاخر بالدرر واللآلئ.

❑ أخي:

لا تربـط نفـسك وقلـبك بالـتراب، والحـمأ المسـنون، والحـجارة والقرميد. إن الصقور لا تستريح ولا تهدأ في الأوكار.

أتهوي من القمة العالية، وتهبط من تلك العلياء التي رفعك إليها الإسلام، أصبحت لطول عهدك بالفتوحات، لا تفهم لغة الصهيل والسيوف، وإهابة الشجعان المجاهدين، ألفت نغمة المغنيين، وعشت بين الآهات والزفرات والأنين، فقدت عيناك النور، وحرم قلبك لذة السرور.

❑ يا يوسف هذه الأحلام:

جدّد فيك الإيمان واليقين، فقد عراك الظن والتخمين، إن مقامك ومنزلك وراء هذه القبة الزرقاء والسماوات العلى، وإن ركبك يمشي فوق النجوم النيّرة والكواكب المتلألئة.

❑ يا بن الإسلام:

أنت وحدك تملك الآماد والأبعاد، أنت رسالة اللَّه الأخيرة، وأنت خالد بخلود رسالتك، دائم بدوام دورك ومهمتك.

*** أخي:**

إن ما حملته النبوة من تحفة غالية وهدية ثمينة، من عالم الماء والتراب إلى عالم الجنان والخلود الذي لا يزول ولا يحول، إنما هي أنت، وقد انكشف هذا السر الدقيق بماضي الأمة الحنيفية والملة السمحة البيضاء، أنت متصل النسب المعنوي بأبيك إبراهيم، خلقت لتحيا مع اللَّه في جواره في فردوسه في دار غرس غرسها الرحمن بيده.

إلى متى تتمتع برفقة الطيور المغرّدة في الحديقة الفيحاء بين الأغصان الرطبة البليلة، أليس بجناحيك قوة طيران الصقور المحلقة في الفضاء، التي تنشئ أوكارها في الجبال الجرداء الشماء.

* أخي:

ما أعذب هذه الكلمات على شفتيك:

أنا مسلم والنور ينبض في دمي ... ولسان كل المكرمات لساني
أنا مسلم والشمس تالف هامتي ... والسائرون بدربها إخواني

❑ يا يوسف هذه الأحلام:

أنت وحدك من يعي ويفهم قول الصادق الأمين ﷺ: «**إنما الناس كإبلٍ مائة لا تكاد تجد فيها راحلة**»[1].

أردد قولك وأسطره في فهمك للحديث: «**إنما قال: الناس كإبلٍ مائة**» ولم يقل: «الدعاة كإبل مائة» بل نحن الرواحل كلنا فاقتحم فأنت لها.

قد غرسنا الدينَ في أرض القلوب ... وجلوْنا الحق من ستر الغيوبْ
ومن الدنيا حللْنا العقدا ... واستنار التُّرْب منا سجدّا
من دنان الحقّ صرّفنا الرحيق ... وهدمنا حانة الكفر العتيق
كأسنا كانت سراج المحفل ... صدرنا كان لقلب مشعل
إن هذا العصر من آثارنا ... من عجاج ثار في تسيارنا
نحن ورّاث هداة للبشر ... نحن عند الحق سرٌّ مدّخر
لا تزال الشمس تُبدي نورنا ... غيمنا فيه بروقٌ وسنا[2]

* * *

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي وابن ماجه، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) من كتاب «تأملات» لمحمد إقبال ـ ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام.

* يا بن الإسلام.. يا يوسف الأحلام:

يا أيها النَّسْرُ المشوقُ إلى الذرى ... يطوي الفضاء بلهفة وحنان
أتُراك بعد البَيْن تعرفُ ما الذي ... يُشْجي الفتى في غُربة الأوطان؟
قم وانتفض يا بْنَ العلاء مُبَشِّرًا ... بتَفَتُّح النِّسْرين والرَّيحان
ولتركب الرِّيحَ الغصوبَ.. يَهيجُها ... قَدَر.. ويطلقها بغير عِنان
واحمل إلى الآفاق مُزْعَةَ رايةٍ ... سَقَطت.. وتأبى ذلة القيعان
مغموسة بجراحنا.. منسوجةً ... من رُوحنا بالصدق والإيمان
من كهفنَا المَقْرورِ في غسقِ الدُّجى ... من عضّة الآلام والأحزان
مِنْ صَرْخَةِ الموتورِ.. في أحشائه ... حمَمٌ تثور بجاحِمِ النيران
مِنْ دمعةِ الطفل البريء تعاظمتْ ... حتى غدت في الأرض كالطوفان
من لوعة الأمِّ الرَّءوم.. مهيضةً ... بالثُّكلِ.. تَسْبيها يَدُ الطُّغْيان
ودم الشهيد على الرُّغام مُجَدَّلاً ... أنفاسُهُ طُويَتْ بلا أكفان
مِنْ كُلِّ مَن ذهبوا.. سياطُ الظُّلْم في ... أعقابهم.. وسلاسلُ السجّان
مِن عمقِ هاتيك الجراحِ شموسُنا ... وُلِدتْ.. وتُسقى بالطُّهور القاني
إنّ النفوسَ إذا تَمَخَّضَ سَعْيُها ... فثمارها يوم الحصادِ دَواني
قد أبرمت بجهادها.. وثباتها ... عهداً يدومُ غداً مع الرحمنِ
ولها مع الأمجادِ وعدٌ صادق ... قد سُطِّرَت بُشراه في القرآن
وإذا الرجال على العقيدة بايعوا ... يا صدق أحلامٍ لهم وأماني[1]

* * *

(١) قصيدة «عودة النسر» من ديوان «قادمون مع الفجر» لأحمد محمد الصديق ص(٦٨ ـ ٧٠).

* أخي: ألا تشتاق لحمل راية الإسلام في فجره الآتي:

يا راية بالنور خافقةً ... يهفو إليكِ السمعُ والبصر
هيّا.. فإن الدهر مُرتَقِبٌ ... ومواكب التاريخ تنتظر

* * *

* يا يوسف الأحلام:

أخي إن فجرك آتٍ، . .
وصبحك يركض نحو بلادٍ
يُعَشعشُ في قلبها العنكبوتْ
الضياءُ الذي في فؤادك يَصْهلُ. .
والليلُ ليلٌ مقيتْ
وهل أنتَ إلا جوادٌ يخبُّ. .
وسيف مُجرَّدْ؟
فهل نفروا مثلما قد نفرتَ. .؟
وهل سهدوا مثلما. . أنت مُسْهَدْ؟
وهل عرفوا لغة السيف يأبَى المذلّة.
يا سيفنا المشرئب الذي. .
ليس يُغمدْ؟
وها أنت طاولت كل النجوم. .
وها هم عبيد القرود
وها هم وطاءٌ لكل مشرّدْ

تساميت كالأقحوانِ . .
وأُرهفتَ . . والكل جَلْمدْ
فهُمْ كالحجارة . . لا حسّ فيها
ولكنك الآن نَبْعٌ تَوَلَّدْ
وهل أنتَ إلا كتابٌ . .
سيقرؤهُ القادمون حروفًا تُغَرِّدْ؟
وهَلْ أنت إلا الثباتُ الأبيُّ . . ؟
وهل أنت إلا التجرّدْ
وهل أنت إلا الزمان التقيُّ
يخاطبنا عبر هذي الفيافي
فنصحو ونسعَدْ؟
ويدمغ من يذبحون الرجولة فينا
ويدحض من يفقدون اليقين المؤكد
وصوتك يا حبَّنا
منذ حلَّ المساءُ . .
وأوغل هذا الظلام المعربدْ
وعادت خفافيشه تترصَّدْ
يسافِرُ في زمرةِ القابضين
على الجمر . . والجمرُ مُوقَدْ
فلا تبتئس،
إنّ فينا من الذِّكر آيًا
تُصبِّرُنا في التهجّدْ

وفينا من القبس النبويِّ . .
مشاعل ضوء تبث اليقين . . بأرواحنا
في زمان التردُّدْ[١] .

* * *

شَوْقٌ وبَوْحٌ

* قال شقيقي عبد الله بن حسين العفاني:

إن الحضارة الغربية وإن كانت قد ارتقت مرتقى عظيمًا في أعطياتها المادية، إلاَّ أنَّها قد تَدنَّت . . في أخلاقياتها تدنِّيا رهيبًا، وقرَّت بقعر هذا المستنقع الآسن الذي ما عادت تصلح معه لقيادة البشرية، وإنَّ الإسلام بأطروحاته وأعطياته لهو الدين الوحيد الذي يستطيع قيادة هذه البشرية الحائرة، والوصول بها لبرِّ النجاة وإني لأكاد أسمع ضمير ذلك العالم ينادي الإسلام قائلاً:

يَقولونَ:
إنْ طالَ ليلُ الدُّجى
فَمِنْ حُلْكَةِ الليلِ
نورُ الهُدى . .
جميلُ المُحيَّا[٢] ، وضيءُ الغُررْ
وقَدْ طالَ ليلي

(١) من قصيدة: «لأنك لا تعرف العيش إلا حُسامًا» من ديوان «الجواد المهاجر» لطاهر العتباني ص(٢١ ـ ٣٠).
(٢) المُحيَّا: الوجه.

وما عادَ يدري . .
سِوى ضَجَّةِ المُترفينَ السَّكارَى
وتِيهِ الحيارى
وعَهرِ البَغايا
وطَفْحِ البَطَرْ[1] .
ومُذْ عافتِ[2] الأرضُ نورَ السَّماءِ
ومُذْ غالَ[3] جيشُ الخفافيشِ . .
بدرَ الضِّياءِ
وأرضي مَتاهَاتُ ليلٍ طويلٍ . .
كريهِ الأفاعي
عميقِ الحُفرْ .
وما عادَ سمعي سِوى نَعْقَةِ البُومِ . .
مِنْ كُلِّ جانب
«لِتنعي» مَواتَ النفوسِ الخرائبْ
وزُورًا يُذيعونَ:
تَشْدُوا، «لِتُحْيي» لَيالي السَّمَرْ .
وما عُدْتُ أُبْصِرُ شَيْئًا بِدَرْبي
وما عادَ ذاكَ السَّنَا . .

(١) البَطَرُ: شدةُ المرح .
(٢) عَافَتْ: عاف الشيء: كَرِهَهُ وأعرضَ عنهُ .
(٣) غالَ: اغتالَ: أهلكهُ وأخذهُ من حيثُ لَمْ يدرِ .

مِلءُ قَلْبِي.
فَقَدْ عَافَتِ العَيْنُ دَمْعَ السَّحَرْ.
فهَيَّا ائْتِنَا بِالضِّيَاءِ القَدِيمِ..
الضِّيَاءِ المُصَفَّى
فما عَادَ يكفي لِتِلْكَ الدَّيَاجِيرِ
ضَوءُ القَمَرْ.

* * *

يقولونَ:
إنْ طالَ عَهْدُ السِّنِينَ العجافِ
وأجهضَ رَحْمَ السَّنَابِلِ..
جَوْرُ الجفافِ
فمِنْ تَوْبَةِ الأرضِ
مِنْ ضَارعاتِ الشُّقُوقِ
يسوقُ الرَّحيمُ هَطُولَ السحابِ
فَيَخْضَرُّ وجهُ اليَبابِ[1]
ويَجْري لدى كُلِّ شقٍّ نَهَرْ
ومُذْ خَبُثَ القَلْبُ..
مُذْ رَدَّ غَيْثَ الهُدى
وما عَادَ «يَلفِظُ» غيرَ القذى:

(١) اليَبابُ: الخراب الذي ليسَ فيه أحدٌ.

خُرافاتِ عَقْلٍ..
مُحيطَاتِ قيحٍ..
وغابَاتِ شوكٍ..
مَرِيرِ الثَّمَرْ.
فَطُفْ بي سَحَابَةَ غَيْثٍ
وطُفْ بي عُيونًا
تَفجَّرُ مِنْ ذا الفؤادِ الحَجَرْ.
وطُفْ فوقَ ربعي..
يبابًا.. يبابًا
وأَنْبِتْ مِنَ الحُشِّ[1] ..
حُلْوَ الزَّهَرْ.
وطُفْ فَوقَ قلبي
ودَعني أُطَهِّرُ قَلْبي
بِمَاءِ المَطَرْ.

* * *

وأَقْبِلْ عَلَى الكَوْنِ
رَوْحًا نَديًّا
فقد دَوَّخ السالِكينَ الشَّقاءُ
وشَقَّ على النَاسِ..

(١) الحُشُّ: مكان النخل المجتمع، وكانَ لقضاءِ الحاجة.

جَهْدُ السَّفَرْ.

* * *

وأَقْبلْ عَلَى الكَوْنِ
رَيَّا[1] جِنَانِ
فَقَدْ أَنْتَنَ الرَّحْبَ.
رِيحُ الخطَايَا
ومِنْ فَيْضِ فَوْحِكَ..
فَوحُ النَّسِيمِ العَطِرْ.
وأَقبلْ لِتُرْجِعَ للكَوْنِ
عَيْشًا هَنِيئًا
فما عادَ في الناسِ
مِنْ أُعطياتِ النُّبُوَّةِ
غَيْرُ الأَثَرْ
وما عادَ في النَّاسِ
غَيرُ الدنايا
تَلوحُ لذي اللُّبِّ
خَلفَ الصُّوَرْ.

* * *

وأَقْبِلْ فَمذْ قَدْ رَحَلْتَ عَنِ الصَّدْرِ..

(١) ريَّا: الريَّا: الرائحة الطيبة.

والرَّكْبُ حَائِرْ
تَقَاذَفَهُ هَائِجاتُ الأَعَاصِيرِ . .
والموجُ ثَائِرْ . .
شَدِيدُ النُّذُرْ
وربَّانُهُ القِزْمُ
قَدْ تَاهَ كِبْرًا . . وما زَالَ غِرًّا[1] . .
وما عَادَ يدري لدى الخطبِ أمْرًا
وقَدْ صَارَ في لُجَّةِ اليَمِّ
أَعْمى البَصَرْ .
فأَقْبِل وقُدْنا لبَرِّ الأَمانِ
فقَدْ ضَلَّ بالرَّكْبِ
طَيشُ الحُمُرْ .

* * *

وأَقْبِلْ . . وأَقْبِلْ
ففي كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ . .
أَحِنُّ
ويَزْدَادُ شوقي إليكَ
لأَرتاحَ يَوْمًا على رَاحَتَيْكَ
فَيَوْمًا مَعَ اللَّهِ . .

(١) غِرًّا: الغِرُّ: قليل الفِطنةِ والحُنكة.

يَعْدِلُ عندي جَميعَ العُمُرْ.
وَلَوْ عِشْتُ ـ باللَّهِ ـ عُمْرِي
وَسَبْعًا كَعُمْرِي
فَلسْتُ أَراني
سَأَقْضِي من الأُمْنِيَاتِ الوَطَرْ

* * *

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي
أَمَا للأَنَامِ ارْتَضَاكَ الإِلـهُ؟!
فَكَيْفَ إِذًا
قَدْ جَفاكَ[1] البشَرْ؟!
ومَنْ لَيْسَ يَرْضَى بشَرْعِ الخَبِيرِ
فَقُلْ لِي:
مِنَ اللَّهِ أَيْنَ المَفَرُّ؟!
ومَنْ لَمْ يَسَعْهُ الفَضَاءُ الرَّحِيبُ
فَأَوْلَى بِهِ..
ضَيِّقاتُ الحُفَرْ[2].

✍ للَّه دَرُّك أبا حسين، بارك اللَّه في قلمك وشعرك وجعله وقفًا على الدعوة للإسلام.

(١) جَفاكَ: الجفاءُ: ضد البرِّ والصلة، وهو أيضًا الغلظةُ وسوءُ الخُلُقِ.
(٢) شِعْرُ: عبد اللَّه العَفَّاني صباح الجُمُعةِ الموافقِ: ٢٩ رجب سنة ١٤٢١ هجرية ـ ٢٧ أكتوبر سنة ٢٠٠٠ ميلادية.

* **إخوتي:** . . . يا كل الطهر يا نبع الكوثر في دنيانا . . يا طيب الجنة وشذاها في أرضنا . . فجرنا آتٍ أرقبه . . أشم عبيره . ونسيمه . . يكحل عيني صبحه .

بدمي أخطُّ رسالتي . . وأُسطِّرُ ... وأزفّ مبعث أمتي وأبشِّرُ
إني أرى عجبًا . . وملءُ مسامعي ... كالرَّعدِ صيحاتُ الرِّجال تُكَبِّرُ
الصحوةُ الكبرى . . ومنشأُ نورها ... في القلب . .يغذُوه اليقين فيكبرُ
جاءت بأمر اللّه تحدوها المنى ... ملء الصدور . .وللحنيفة تثأرُ
فمتى يُطلُّ على الحياة مشعشعًا ... فَجْرُ الحنيفة وهو طلق نيِّرُ؟
تهفو جوانحنا إليه مشوقةً ... وكأنه غصن الرجاء الأخضرُ
أو نفحةٌ ميمونةٌ هبَّتْ على ... أرواحنا . .فإذا بها تتنضَّرُ
ديني منار السالكين . . شعاعه ... يَهْدِي . .وآيتهُ العظيمة تَبْهَرُ
هيّا انهَجُوا نحو الأماني نهجَه ... إن الصباح على يديكم يُسفِرُ

وأخيرًا: المستقبلُ كل المستقبلِ لنا سنُطِبُّ المريض بدوائنا . . صُمَّتْ أذن الدنيا إن لم تسمع لنا صُمَّتْ أذن الدنيا إن لم تسمع لنا .

* * *

وآخر دَعْوَانا أن الحمدُ للّه رب العالمين.

مصر ـ بني سويف ـ بني عفان.

سيد بن حسين العفاني

فهرس الأحاديث والآثـــار

طرف الحديث

الصفحة

* الآن جاء القتل..... ١٠٠
* أبشركم بالمهدي..... ١٢٠
* أبو بكر وعمر سيدا..... ٤٠١
* أتاني جبريل..... ٣٨٣
* أتاني ملك فسلم..... ٤٠١ ـ ٤٠٢
* أتريدون أن تقولوا..... ٣٦٧
* أتعلم أول زمرة..... ٣٩٩
* أتقعد قعدة..... ٤١٦
* أحب الأديان إلى اللَّه..... ٢٨٥
* أحب الناس إلى اللَّه..... ١٣
* أحلت لنا ميتتان..... ٣٨١
* أخذنا فألك من فيك..... ١٤
* إذا تمنى أحدكم فليكثر..... ٤٧٥
* إذا صلى أحدكم..... ٤١٠
* إذا كان يوم القيامة..... ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٩٥
* أضل اللَّه عن الجمعة..... ٣٧٩
* أعتموا بهذه الصلاة..... ٣٧٣
* أعطيت خمسًا..... ٣٧١
* أعطيت سبعين ألفًا..... ٤٠٤
* أفضل الإسلام الحنيفية..... ٢٨٥